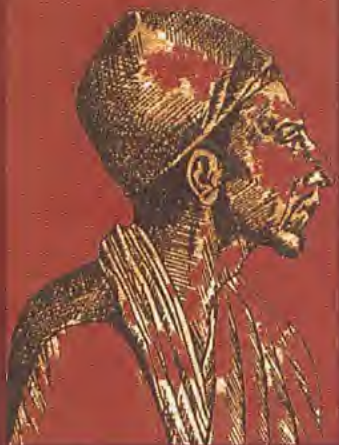




المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة



د. أحمد حسين الصاوي

رفع بعض الباحثين 'المعلم' يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب 'المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة' تختلف الصورة تمامًا. يتناول الكتاب سيرة الجنرال يعقوب منذ نشأته، معتمداً على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزاً على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجاً واضحاً لم يعد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها وثبتت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل.

الطالعة د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.gatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

الثامن - ج ١

مسلة لتعريف كتب مختارة للعبور عن تاريخ مصر الثقافي والتاريخي

مسلة ذاكرة الوطن

تقديراً
للهبة العامة لقصود الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر

سعد عبد الرحمن

الإشراف العام

جمال العسكري

الإشراف الفني

د. خالد سرور

• العالم يعقوب

بين الأطلال والحقائق

د. أحمد حسين الصاوي

الطبعة الثانية

الهيئة العامة لقصود الثقافة

الطاهر 2007 م

154 ص. 15 × 22 سم

• المجيد الطراف ، د. خالد سرور

مقدمة الأديب

2007 م

• التوفيق الدويلى ، د. خالد سرور

المزامل

مقدمة الأديب

على العنوان الثاني ، 154 ص. 15 × 22 سم

سماح قيسر العيسى

الطبعة 154 ص. 15 × 22 سم

ت. 2007 م

• العبد التقييد

سورة العمل للكتابة والمشر

2007 م

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

أسامة عفيفى

مدير التحرير

طارق هاشم

سكرتير التحرير

محمد الفخراي

العالم يعقوب

بين الأطلال والحقائق

د. أحمد حسين الصاوي

إدارة الثقافة



الآن، الواردة في هذا الكتاب لا تعيد بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تقديم عن رأي قديم في التراث الأول

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصود الثقافة
• 154 ص. 15 × 22 سم. 2007 م. 154 ص. 15 × 22 سم
• كتاب من الهيئة العامة لقصود الثقافة، أو بالأشهر إلى المجلس.

المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

تقديم

الكبير د. أحمد حسين الصاوي . . والذي فقد في منتصف
الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد
على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما
قبل الاحتلال بل وتعاون مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من
مسلمين وأقباط، موضحاً موقف الكنيسة المصرية الوطنية من
الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصياً منذ تعاونه مع المماليك
وحتى تعاونه مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجراً إلى فرنسا
بطلب شخصي منه حتى لا يقتل به أبناء وطنه جراء خيانتهم لهم.
ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره
بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول
على نسخة منه أمراً مستحيلاً، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء
النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تنفيذ رأي
لرئيس عرض عن المعلم يعقوب . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن
كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يهتمون عنه في المكتبات بلا
جدوى. واقترحت على عسا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة
ذاكرة الكتابة التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس
تحريرها . فقال لي صاحبها بركة الله إنها في دائرة تخصص
سلسلة ذاكرة الوطن . ومنذ هذه الكلمة وأنا اعتبر أن إعادة إصدار
هذا الكتاب إحدى وصايا أساتذتي رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة
فضلاً عن كونه إعادة اعتبار لأساتذة د. أحمد حسين
الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . رغم أنه رائد من رواد الإعلام

د |

ورغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانتة"
لتعاونه مع المحتل، ورغم أن وثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في
التأمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية. إلا
أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش
نابليون ما زال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن
يصوره للأجيال الجديدة كرافد للتحرير، وكتائر على الظلم العثماني
والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع
الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . .
ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك
تماماً، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة
حفاظاً على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة
لأغراض ليست وطنية . . . تعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

ج |

الكنيسة للمعلم يعقوب من الناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبهها بالمماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من رعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . . يتفرد أيضا 'روفيله' بموقف الكنيسة الوطني الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون، واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع محتل "الكاثوليكية" - نابليون - والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها . الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة "المعلم يعقوب" الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثائرا وتحريريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإضاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو يمكن بل إن "الخيانة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر .

أسامة عفيفي

ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي . فضلا عن دوره في التاريخ للطباعة والصحافة .

وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي إختناق كما هي، وسعى لتسحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الحقائق الهامة التي أرى أن أهمها توضح موقف الكنيسة القبطية المصرية الوطني من الاحتلال الفرنسي . وأن تسمية جيش يعقوب باسم 'الفيلق القبطي' كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمترقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والخرافيش من المنسحق إلى جانب شواذ النصارى الوافدين، ولفظ 'النصارى' في الأدبيات التاريخية يعني 'المسيحيين' غير المصريين . فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح "الأقباط" . بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور 'المعلم يعقوب' في العمل مع المماليك في جمع الضرائب والحزبية من الفلاحين الأقباط في الصعيد، وغلطته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباط . ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو 'تاريخ الأمة القبطية' ليعقوب نخلة 'روفيله' الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة 'المعلم يعقوب' بالمماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد 'روفيله' بخبر حرمان

في بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقدمه ، وبالقدر نفسه
تلفظ منهم كل من انصرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلاده .

د/أحمد حسين الصاوي

مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، نعرضها بكل موضوعية
وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حساسيات ، ونرجو أن يتقبلها
القارئ برحابة صدر ودون ما حساسيات كذلك . فهدف الدراسة
هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام
التاريخ بين مسلم ومسيحي .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا
كان الفرنسيون قد فشلوا في امتلاك مصر أو في إعادة تشكيل هيكلها
السياسي والاجتماعي، فالذي لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات
كان في حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر في حياة
مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة
ما أوشكت أن تحدثه من شروخ في بنية الأمة ووحدةها .

فتحت مصر بعد الحملة صفحة جديدة في تاريخها واستأنفت
سيرتها بما رآه من دروس ، أمة واحدة . ربي الشعب المصري
بمسلميه وأقباطه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعاً ونعتز
بأبطالنا وأبطالنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجهد

أحكامهم بين الأبيض والباص والأسود القائم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستنتج بعقل متجرد ومنطق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محققة بالخاذير حافلة بالمشقة فضلا عما تنسم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول في هذه المراسلة مناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تتصل بحياته ، وباستقراء الظروف والملايسات التي نشأ وعاش في ظلها والأحداث التي تتفاعل معها ، أن أستخلص ملامح صورته الحقيقية دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودرن ما « رتوش » أو ضلال . وهو قبل كل شيء مواطن مصري برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر الحديث . ولا يكاد الجيل الحالي من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقللة القليلة التي تعلم تختلف أو تتخبط في الحكم عليه ، تبعا لما تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريم .

عقيد

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكنهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائنا لقومه وبلاده ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبري . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تفسيره في صورة زعيم مرموق من زعماء طاقته ، مثل بعض مؤرخي الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش في اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التي نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة في آخر أيام حياته مانم يعرف عنه في حياته ، مثل أستاذنا شفيق غريال . ثم جاء أخيرا من مضى خطوة أبعد ، فرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن الخلاف الرأى التاريخي حول شخصية عامة هو من الأمور الشائعة التي ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرها . فكيف نكتنه الحفيظة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى شرف السبل بين سبقه من المؤرخين في هذا الصدد ، وتفاوت

والتقاليد الخاصة التي أمثلها الاعتبارات « الإسلامية » و « العنانية » ،
 فقد عاش الأقباط أفراداً وجماعات جنباً إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين
 في وئام ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة
 ويشاركونهم عديداً من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من
 قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة في الأعياد
 والاحتفالات المصرية الأصلية كوفاء النيل وشتم النسيم . بل بلغ الأمر
 في هذا الصدد أن اختلطت أحياناً بعض المناسبات فارتدت ثياباً إسلامية
 مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشارك فيها الجميع في
 حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الأمانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التعايش السلمي عميق
 الجذور تعرض أحياناً لعلية إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة
 احتكاكات طبقية أملاها الجهل والتعصب . وهي حالات نادرة محدودة
 النطاق ، ولا يمكن أن تقاس إلى مثيلاتها في أوروبا أو آسيا في تلك الأيام .

وبالإضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفاً ومهناً معينة حذقوها
 وبرعوا فيها وتعقبوا أسرارها ، وأصبحت حكراً ضم ووقفنا عليهم ، ثم
 يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركوهم إياها ولا أن ينافسوه في
 مجالاتها . وكان على رأس ما حذقوه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة
 وما يتصل بها من حساب الأموال عداً وحباية وتحويلاً وخصماً
 وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات في عمليات
 الصيرفة والحساب اعتقاداً تاماً . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف
 « محاسب » يقبض « بمسك دفاتر » الدخول والمصرف ويحسب الحق
 والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسئولون من « الكشاف » و
 « الخسبين » و « المختزين » يهدون إلى الحاسبين الأقباط بهذه الأعمال
 فيما يتصل بالأموال العامة للدولة . وكانت علاقة هؤلاء الخاسمين بمن
 يعملون لهم هي الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولاً ،

أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العناني يمثلون أقلية متميزة تعيش في
 نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل الترتيب بزي معين ، أو اتخاذ
 لون معين للمصامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ
 أصبحت مصر قطراً إسلامياً ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية
 عنانية تخضع روحياً وزمناً لسلطان خليفة المسلمين في استانبول ،
 ويتحكم استقرارها بنظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الوالي
 والمماليك وقوات الجيش العناني (الأتراكشارية) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات
 — دون ما دخول في التفصيلات — يدعاً أو أمراً غير مألوف في تلك
 الأيام . فقد كان ذلك سنة من سمات مختلف الأنظمة التي حكمت
 مجتمعات العصور الوسطى شرقاً وغرباً ، في ديار الإسلام وفي غير ديار
 الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط
 نصارى الشام والأروام (اليونانيين) بجامع المسيحية في كل .

ولم تعيش طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر
 طوائف المجتمع المصري وطبقاته . فبعض النظر عن تلك الأوضاع

وكان من المنطقي كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أنشأوه من ادعاءات . فأخذوا منذ استقرار الأمر لهم في القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواهم الواحدة لإتمام احتلال البلاد ، وللمساعدة الجهاد الإداري على تدبير شؤون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والحكومين على السواء .

وكان من المنطقي أيضا أن يغير هؤلاء الأقباط ومن ظاهريهم في موقفهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الجديد ، فحاولوا أن يبرزوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحللوا من تلك القيود الشككية التي فرضت عليهم قرونا ، ويألفوا في ذلك أحيانا بما يؤدي مشاعر المسلمين ، ويسرد الجبري من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ (عقب دخول الفرنسيين) ... ومنها ترفع أسافل النصارى من لقط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيم الخلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستدلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » (١)

ولكن يبدو أن الأمر في هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففي شهر رمضان الثالث ، وهو شهر له مكانته الخاصة في نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدي مشاعر المسلمين . ويقول الجبري : « ثم إن نصارى الشام رجعوا إلى عاداتهم القديمة في لبس العمام السود والزرقي وتركوا لبس العمام البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات ، وذلك بتنع الفرنسيين لهم من ذلك . ونهوا أيضا بالمداغة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على أعانهم مع المسلمين أولا ، ولا يصحاحرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك نرى ، منهم ، كل ذلك للاستجلاب لمواظب الرعية » (٢) .

وإن كانت لا تنفقر إلى الوكام .

وقد حتى المحاسبون الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة ، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار « الموليين » أصحاب الإقطاعيات الشاسعة والثروات الضخمة والخيرات الوفيرة التي تتيح أوسع الفرص للكسب مشروع وغير المشروع .

وتضخمّت ثروات بعض الأقباط فصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومصالحها ولها نمط حياتها الخاص . فلبسوا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم اللبس والفسفور ، وفرشوها بكل غال وثمين ، وملكوا العبيد والجراري ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والأخراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبنأ كانت القاعدة العريضة من الطائفة القبطية تتعايش مع القاعدة العريضة من المسلمين نعيشا سلميا كاملا في قرى مصر ومدنها ، كان متوزروا الطائفة وأغنياءها أكثر إحساسا أو حساسية بتفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية متميحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامي كبير ، وشككتها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

الفرنسية مع من عمل في خدمتهم من المماليك ، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال . وقد حارب يعقوب بالفعل في صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التي نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثماني قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة (شكل ١)

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته « إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شلوذه عن مألوفهم » (٣) . وقد تبدى ذلك في بعض مظاهر حياته ، فقد خالف أبناء قومه في الزى والحركات ، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية (كانت سورية من حلب) . ولم يكن رجال الدين راضين عن غروره وخروج تسرياته معهم ومع الكنيسة عما تنبئ مراعاته من الأصول والتقاليد . وقد تصحبه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخوانه ، ولكنه رفض النصيحة .

هذا هو « المعلم يعقوب » الذي كان في الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بونايرت . وقد بلغ شأراً بعيداً في قومه ، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة المنيريين في مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء .

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيين ، وكيف تطورت ؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) في كتابه « الجنرال عيد الله منو » أنه كان على بونايرت وهو يرأس جهاز الحكم في مصر أن يضمّن الوجود المادى للجيش الفرنسي . ولكن بما أن الأقدار قد ألفت به إلى بلد غير متحضر ، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب . ولكن كان أمانة الأقباط . فمن قبل الحملة كان المماليك دائماً يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين

وينبغى أن نلاحظ أن استعانة الفرنسيين بالأقباط في الأمور المالية بالذات كانت ضرورة حتمتها خيرة هؤلاء العلوية السابقة ، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن . أى أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هي التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد .

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية ، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعماري وموجاته خيرة وحديثاً وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعت من تمويهات ، وجدت في سياسة التفريق بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها .

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد بغى بالتعاون معه أحياناً بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الانتباه من غير أبناء الأقليات ، ممن لا يبتغون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة . وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازين فالنتيجة واحدة . وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والنجاة والمنفعة في كتف الفرنسيين ، وإنما شاركهم في هذا الاتجاه بصورة ما من بقى في مصر من المماليك (المسلمين) وعلى رأسهم مراد بك . لقد ظل مراد ورجاله مثلاً يناوشون القوات الفرنسية في الصعيد حتى آثروا في عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإغناء على معائنهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان بوصلون به ما اعتادوا عليه من التحكم في رقاب العباد . وكذلك فعل مماليك آخرون ممن شابهوا مراد بك في الصعيد وغير الصعيد من أراضي مصر . كما جهر بتعاونهم نفر من قدامى موظفى الحكم العثماني .

ديسيه . وقد هنا القائد الفرنسي على حسن بلائه وقدم إليه سيفاً تذكاريًا نُقِشت عليه « معركة عين القوصية - ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ » .
وفي هذا الوقت كانت حدة القتال في الصعيد قد هدأت ، وساعدت الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتسب به من المماليك على أن يجدوا ملاذًا آمنًا في كهفوره ونجوعه القابعة في بطون الجبل ، كما عاق ضيق الوادي المطرد نحو الجنوب أي تقدم فعال للقوات الفرنسية الزاحجة التي اكتفت بإقامة نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم . ومن ثم طالبت حملة الصعيد أكثر مما كان متوقعًا .

شكل رقم (١)



المالكي والثانيين "وأعانهم بالمال واللوازم" مداراة لهم وفداء لأرواحهم وعطفا على حركتهم ، فإن يعقوب "هزرك في داره بالسرب الواسع جهة الرومي ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر الخارين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بوناپرت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى (من زعماء المالكي) معه (٦) .

ويعترف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أخلاط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات الثنائيين والمالكي بعد نقض معاهدة العريش . ولتقرأ ما كتبه أحدهم (رؤوف حبيب) نقلا عن عدة مصادر « وكادت نار تلك الثورة أن تفلح القبط بشواظها لولا أن تدارك المعلم يعقوب الأمر بشجاعته المعهودة وحسن دفاعه ، فأظهر في تلك الظروف العصبية مقدرة منقطعة النظير واستهدف لخطر داهم ، وظل رابط الجأش على عسكريته وهويته فيهم روح الحماس بعبارته النارية وجرائته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عتيق وخضم عبيد لمدو حتى تم له النصر » (٧) .

أحمد كليبر ثورة القاهرة مستخدما أبشع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم فرض على المصريين كثيرا من المعازم عقابا لهم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز في أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الجبرتي « وكمل يعقوب القبطي بفعل في المسلمين ما يشاء » . ويفصل القول في ذلك فيذكر « إيه (أى الفرنسيين) وكانوا بالقدرة العامة وجيع المال يعقوب القبطي وتكفل بذلك وعمل الدنيوان (أى أقام مكنتا) لذلك بيت البارودي » (٨) .

كان طبعيا بعد فشل ثورة القاهرة الثانية أن يزيد زهو الأقباط وخيالاتهم ، وبخاصة من عمل منهم في خدمة الفرنسيين ، وأن يشابههم

في عهد كليبر

غادر بوناپرت مصر فجأة (في أول أغسطس ١٧٩٩) إلى فرنسا ، وخلفه في القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذي كان يضيّق ببقاء الفرنسيين في مصر ويتطلع للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن نفي من فشل الحملة في تحقيق أغراضها . ومن ثم رغب بالتفاوض مع الثنائيين والإنجليز تمهيدا للجلاء عن مصر ، وإن لم يقدر لهذا الجلاء أن يتحقق في عهده .

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى جوار قائده في ظروفه غير المواتية . وكان ثلثي الثنين مثالا كليبر في مفاوضات الصلح مع الجانب العثاق الإنجليزي في ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التي أبرمت بين الثنائيين في أول عام ١٨٠٠ أن نقضت ، ونشب القتال بين الفرنسيين والثنائيين ، وقد انتصرت فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصارا حاسما (موقعة عين شمس - مارس ١٨٠٠) .

ولكي يتخفى كليبر دماء جنوده بعد أن كان الثنائيون قد تغلغلوا في البلاد وأثاروا الجماهير ضد الفرنسيين إثر نقض اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتحالف » (Paix et alliance) وكانت

للفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق غريال ، ^(١١) ومسحح أنه ازدهى بنفسه وركبته الخيالة ، ولكنه انفرذ دون بني قومه بما نسخ حوث احمد تلك الأسطورة الدرامية التي اختلفت فيها الآراء .

لقد منحته كليبر رتبة « كولونيل » وجعله على رأس فرقة عسكرية من شباب القبط . فما هي قصة تلك الفرقة أو « الفتيان » كما عرفه المؤرخون ؟

يقول مؤرخو الأقباط (نقلا عن جاستون حصى) ^(١٢) إن المبادرة جاءت من جانب المعاد يعقوب الذى « فكر فى تأليف فرقة قبطية » . وقامح الفرنسيين فى ذلك فوالقوا . ويقولون إنه بعد أن جمع يعقوب شباب هذه الفرقة وكل كليبر أمر تدريبهم إلى ضباط فرنسيين . ويريدون على ذلك أن يعقوب هو الذى جهز هذا الفتيان بالسلاح والميرة على نفقته الخاصة .

ويجارى الأستاذ شفيق غريال كذلك جاستون حصى فيذكر أن يعقوب « نظم جيشا من الأقباط يخدم فى صفوف الفرنسيين » وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة ^(١٣) ، وأن كليبر « أذن بإنشاء القوة القبطية » . ويؤثر الدكتور لويس عوض ألا يرجع أن يكون يعقوب هو الذى أنشأ الفرقة القبطية ، فيقول إن كليبر عين يعقوب « قائدا للفتيان القبطى الذى شكّل فى مصر ليعاون الفرنسيين فى حربهم ضد المماليك والأتراك » ^(١٤) .

غير أن معاصرى الحملة من المؤرخين يذهبون مذهبا آخر . فيقول ريجو (نقلا عن بعض وثائق الحملة ومعاصريها) إنه بعد انتصار كليبر على الأتراك فى موقعة عين شمس « كان لديه ٥ آلاف ضابط ، حدى على استعداد لخوض معركة أخرى فوراً ... وكان كليبر يتأهب لكي يضم اليهم قوات إضافية : فرقة من الأقباط وأخرى من اليونانيين » ^(١٥) .

فى ذلك غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء ملوك هؤلاء وأولئك فى معاملة المسلمين إلى أقصى حد . ونستطيع أن نتبين قناعة الصورة من عبارات الجبرق التى وصف بها هذه الحالة والتى تقطر مرارة وسخطا . فهو يقول مثلا « تطاولت النصارى من القبط والشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أفراضهم وأظهروا حقدهم ولم يثبوا للصالح مكانا وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام المؤمنين .. » ^(١٦) . ويشير الجبرق إلى تعمس السلطات الفرنسية فى تفصيل المعازم التى فرضتها على المصريين ، من أموال وغلل وماشية وغيرها ، فيقول « وكل ذلك بإرشاد القبطية وموافقة البلاد (يقصد الأقباط المسيحية الأخرى) لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة ونفاسوا الأقاليم والتمروا لهم (أى الفرنسيين) بجميع المال . ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو فى أبهة عظيمة وصحبه الكنية والضياف والأتباع ... والخدم والفراسون ... وتقاد بين يديه الجنائب والبعال والرهوانات .. والقوام والمقدمون وبايديهم الحراب المضضعة والمخبة ... ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهته المستوفين (أى المخلصين) من القبط أيضا ... ومعهم العسكر من الفرنسية .. والصرايين والمقدمين ... فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يعرفهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسب ، وخصوصا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم مقدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضرَبوهم وسجَّبوهم معهم فى الحبال وأذاقوهم أنواع البكائ » ^(١٧) .

أما يعقوب فقد تعاملهم نفوذه وعلت مراتبه ، وبلغ فى علاقته بالفرنسيين شأوا بعيدا . صحيح أنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع

المفظة في ذلك . ولكن هذا لا ينفي أن خيلة الفرنسيين كان لها في نفوس يعقوب صدي طيب ، وأنها وجدت منه تجاربا متحسبا . فتحن لانتصى له سابقة اهتمام بالأمور القتالية منذ صباه وميله الشخصي إلى الفروسية والنزال . ونحن نذكر له ما اصططعه في مقر إقامته بالقاهرة من وسائل التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ثم اشتراكه في الحرب مع قوات ديسيه التي كان يصحبها في زحفها بالصعيد ، وكذلك ما أنقذه من إجراعات وما كان له من إسهامات في أيام ثورة القاهرة الثانية . أي أن الفرنسيين يحفظهم الاستعمارية ويعقوب بأحلامه وتطلعاته الثمينة على إرادة واحدة تجسدت في إنجاز واحد ، هو تكوين القبايل القبطية .

وعلى ذلك فمن المبالغة أن نفترض أن يعقوب هو الذي فكر وحده في إنشاء القبايل القبطية ، ثم نجعل من ذلك الفرض مسلمة بيتي عابها موقفا ليعقوب لاستد له من دليل ، فنقول كما قال الأستاذ شفيق غربال « إن من أسباب تأييد يعقوب للحكم الفرنسي أنه أتاح له إنشاء قوة حربية مصرية مدوبة على النظم العسكرية الغربية ، وإن وجود الفرقة القبطية أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية ... من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة (أي يترجم حركة استقلالها) إذ تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا » . ومن الغريب أن يذهب مؤرخ عظيم كشتيف غربال في التصور إلى ما هو أبعد من هذا ، فيعتقد مقارنة بين يعقوب وعمر مكرم قائلا إن يعقوب كان « يرمى إلى الاعتداد على القوة المثيرة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبي الذي تسهل إثارته ، والذي قد يصل سرعا لتحقيق أغراض خاصة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر .. هذا الفرق بين الأداه التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر ، ليس في الواقع إلا منظما للفرق أعق . إذ ما حاجة ... تعيب الأشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلاطنة أما يعقوب فله شأن آخر ، إذ أنه

ويؤيد الجرحى ذلك بالتفصيل في حديثه عن حوادث تلك الأيام نفسها في أفرس ١٢٨٥ : مايو - يونيو ١٨٠٠) « طلبوا عسكريا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزبهم بزيتهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم وبزيتهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شبابهم نحو الألفين وأحضرهم إلى مصر (أي القاهرة) وأضافهم إلى بعسكر » (١٢) .

وبذلك ذكر الجنرال رينييه (Reynier) ، وهو أحد قواد الحملة البارزين ، أن كثير بعد نقض اتفاقية العريش كون فرقة من اليونانيين (الأروام) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندي (أي ما يقرب من عدد جنود القبايل القبطية) . وسجل معاصرو كليبر أيضا أنه في صبيحة يوم عبرة ذهب إلى جزيرة الروسة لكن يتفقد القوات اليونانية (١٣) .

وما يؤكد أن تجنيد أثناء طوائف الأقليات المختلفة في مصر كان سياسة فرنسية نمت ما حدث عندما بدأت المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين عقب صلح العريش مما انتهى بنقضه . وقد ذكر الجرحى من ذلك أن العثمانيين أرسلوا بعد الصلح بعض المراكب إلى « بحر المكنديرة » لاستئناف العلاقات التجارية مع مصر في حراسة بعض السفن الحربية . ولكن الفرنسيين « استولوا على الجميع وأخذوا مدافعهم وسلاحهم وحبسوا القبايل وأعيان التجار وأخذوا الملاحين والفتحين من البحرية والصارى الأروام وهم عدة وافر وأعطوهم سلاحا وزبهم بزيتهم وأضافهم إلى بعسكرهم وأرسلوهم إلى مصر (أي القاهرة) » . بل إن يونانبرنت نفسه عندما قاد حملته على مصر كان في جمعت مشروعة لتجنيد عشرين ألف رجل من أقليات الولايات تحتية التي يفتتحها .

ومن هنا فلا أقرب إلى الشك أن تكون فرقة عسكرية من شباب الأقليات كان من حفظ المستعمرين الفرنسيين وأن يعقوب كان أضافهم

أحلام الفارس القديم : فرقة من الجند وقلعة محصنة وحرس خاص
ورسوم وشارات ولقب عسكري .

لا يريد عودة الممالك والعنايين وإنما يعمل على أن تكون لفنة من
المصريين يد في تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير
ذلك ، وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على
النظم الغربية ، فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذي ألقاه انتصار
الفرنسيين على الممالك . أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد علي بعد قليل
من أن سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم
العسكرية ... (١٨) .

استقر يعقوب في القاهرة على رأس النيل القبطي . ويبدو أنه كان
خفا الموقف الغريب والمضى في تأييد المستعمر وخطته إلى هذا المدى
أسيرة الآخر في نفوس المصريين . ولعل في عبارة مؤرخنا الجيوق التي
سجل بها هذا الحدث ، وما تحفل به من امتعاض ومرارة ، ما يعكس
مشاعر الناس لإزائه . قال الجيوق من حوادث عام ١٢١٥ - إن
يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنسيات وجعلوه سارى عسكر القبطية
(أى قائدا لهم) جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياعهم بزي مشاه
لعسكر الفرنسيات ميمرين عنهم بقبع يلبسونه على رؤسهم مشابه لشكل
البريطة وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع
ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم
وصيحتهم عسكرة وعزونه ، وجمهم من أقصى الصعيد وعدم الأماكن
الخاوية لخارة التنصاري التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبني
له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بساتين عظام .
وكذلك بني أبراجا في ظاهر الخارة جهة بركة الأزبكية . وفي جميع
السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وينادي الرصاص على هيئة سور
مصر (أى القاهرة) الذي رثه الفرنسيات . ورتب على باب القلعة
الحارح والدخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم
البنادق على طريقة الفرنسيات (١٩) . وهكذا أرضى يعقوب في نفسه

الفرنسية، ويتفانى هو وأعدائه في أداء هذا العمل على حساب أمن المصريين وسلامتهم وحرياتهم وكراماتهم وحرمة بيوتهم وأموالهم . واستقراء الوقائع في هذا الصدد وأنعام النظر في ملابساتها وردود فعلها يبين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتعصب الطائفي . لقد غلبت عليهم الانتهازية الجشعة والأثرة العمياء التي تجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التي دعت بهم ، وهم فئة قليلة مستضعفة من الناس، فجأة إلى مكان الصدارة والنفوذ والمنعة ، بعد أن عانوا طويلا من امتنان لا يرفعهم من حضيضه ما ملوكه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم ، كما يقول شفيق غريبال (٢٠) .

وبعدئذا الجبري عن كثير مما شاهده في تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر المطالية بالمال وعين لذلك رجل نصراني قطي يسمى شكر الله ... فنزل بالناس منه مالا يوصف .. فكان يدخل إلى دار أي شخص لطلب المال وصحبته المسكر من الفرنسيات والفلة ومايديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له القرم وقت تاريخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله بيلواي فإنه كان يحبس الرجال مع النساء وينوع عليهم العذاب (٢١) .

ويرى الجبري كذلك في حديثه عن مشاركة يعقوب ورجاله في تحصين القاهرة في وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية (من حوادث شهر افرح ١٢١٦ : مايو ١٨٠١) أنه « توكل رجل قطي يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطي » ويبدو أن تجاوزات أعوان يعقوب بلغت من التطرف حدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تتدخل لوقفها . فعندما أبى الناس

في عهد منو

لم ينعم كثير طويلا بانتصاره على العثمانيين وبنجاحه في إخماد ثورة القاهرة الثانية وفي تحقيق الاستقرار بالصعيد . فمالئث أن لقي مصرعه غل يد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠ . تكهرو الجو في القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، وتولى قيادة الحملة جاك منو (Menou) وبدأ التاربع يخط أولى سطور الفصل الحثامى في حياة الحملة الفرنسية وجيشنا الشرق . ومما بلغت النظر في هذه المناسبة ويوضح وثيق الصلة بين الفرنسيين والطوائف المسيحية في مصر أن جنازة قائددهم القتول لم يشترك فيها من المصريين غير ممثل هذه الطوائف . ولنقرأ مقاله شاهد البيان المؤرخ عبد الرحمن الجبري من وصف هذه الجنازة : « ولما فرغوا من ذلك (أى من محاكمة سليمان الحلبي وزملائه) اشتغلوا بأمر سارى عسكريهم القتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكر ، وتصيرو مكانه عبد الله جاك منو ، ونادوا بالكس والررش (استعنادا لتجارتهم) فلما أنشبهوا اجتمع عسكريهم وأكابرهم وطائفة عنها القبط والشوام (أى يمثلونهم) وخرجوا بموكب مشهده ركبان ومشاة وقد وضعو في صندوق من رصاص ٢٠٠٠ .

استمر يعقوب في عهد منو يؤدي مهمته في خدمة السلطات

شكراهم إلى « بليار » (Belliard) قائمقام (أى نائب) منو أمر
بالقبض على ذلك القبطى « وحبيه بالقلعة ... » (٢١) .

وكان من أعزائى يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فيذكر
الجيزى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ (أول سبتمبر ١٨٠١) أن
السلطات العثمانية التي كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى
الاسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطارقي » وحصلت منه « خمسة
عشر ألف ريال » ومصطفى هنا كان كلارجيا (أى أمين مخزن
الأعدية) عند قائد أغا (أى رئيس الأنكشارية) . فلما خرج الأمراء
(أى المماليك بعد دخول الفرنسيين) تقيد مقدما عند يونانيرته ثم عند
كليبر . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر
القردة وضع المال تقيد بخدمته وتولى أمر اعتقال المسلمين وحبسهم
وعقوبتهم وضربهم . فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة (الظهيرة)
ويأمر أعوانه بإحضار أفراد الخيوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين
يديه وبطالته بإحضار ما يفرض عليه بما لا طاقة له به ولا قدرة له على
تحصيله فيعتذر بخلو يده ويرجى إمهاله فيجزه ويسبه ويأمر
بضربه ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى داره
وصحبه الجماعة من عسكر الفرنسيين ويهجمون على
حريمه ... » (٢٢) . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعربة
بعد ذلك بأقل من شهرين .

هذا وقد كافأ منو المعلم (الكواويل) يعقوب على خدماته المخلصة
للفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الخافلة بالأحداث بمنحه
رتبة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .

قصيدة غير علمية

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بصدمة عاطفية هزت أعصابه ،
فقد بلغه — متأخرا — خبر مصرع صديقه وحبيه الوسيم الجنرال
ديسيه . كان ديسيه قد غادر مصر فى عهد كليبر بدعوة من يونانيرت
ليتنضم اليه فى حربه مع التوسيين ، فقتل فى معركة مارينجو
(Marengo) الشهيرة التي دارت عند إحدى القرى الإيطالية يوم
١٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كليبر . ويقول
جاستون حصي إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى
الثانية والثلاثين — حزنا شديدا وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع
ثلاث تكاليف بناء النصب المزمع إقامته لتخليد ذكرى « الرجل الذى
وهبه قلبه » . وكانت سلطات الحملة قد فحنت أكتابا لإقامة هذا
النصب بين جنودها (٢٣) .

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمستوطنين الفرنسيين عن حزنه بطريقة
متفكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف
صايفه الأب روغانيل أن ينظم له قصيدة بما أراد ، فنظمها هذا فى خمسة
وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا . ولابد لنا هنا من

قصيدة يعقوب . ولكنهما اكتفيا بالإشارة إلى ذلك دون أن يشيرا بينا واحدا منها . وقد عثرنا على النسخة الأصلية للقصيدة التي بحث بها يعقوب ومعها ترجمتها الفرنسية في بعض محفوظات وزارة الحرية بباريس . ومن فحص مخطوط القصيدة وإعلاء النظر في معناها ومعناها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن ناطقها ومرسلها .

القصيدة مقدمة على شكل لوحة جميلة ، فهي على ورق جيد شبه صفيق يمتاز عن الورق المعتاد في ذلك العهد . وقد استخدم كاتبها وواضح أنه خطاط محترف — خط النسخ الجليل في كتابة النص ، مع بعض عبارات في المقدمة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة مزين بالزخارف الدقيقة الملونة والمذهبة . وكذلك استخدمت للوحدات الزخرفية الملونة في الفصل بين أشطر الأبيات . ويعلم اللوحة تكوين زخرفي تليه عبارة « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، وهي كما نعلم جزء من الآية القرآنية « الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وتلى ذلك مقدمة نثرية مسجوعة تقول بما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا تقليديا « الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنعام اللغات الدوامس ، وكاشف الغطاء الدلاص ، عن الآثار الدوارس . تحمده حذا رشكرا لائقا باله مبدع وخالق ، باري البروات والخلائق ، مكنون الأرض والسماوات ، يصور الأحياء والأموات ، يميز النفائس من الخسائس ، فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره ، وهو المالك والسبب ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة افتعال صاحبها في استخدام الألفاظ التي تناسب سجعته حتى ولو لم تناسب المعنى ، وعموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ في اشتقاق بعض الألفاظ .

ثم جهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذي يقول بالوصف : « وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد ، به تنحب وفات عزيزه ، الجنرال

وقفه متأبة تأمل فيها هذا العمل ودلالته . ولكن ينبغي قبل التعرض لضمون هذه القصيدة وبنائها أن يتعرف معنا القارئ على ناطقها ، فمن هو روفائيل ؟

الآب روفائيل أو رافيل (١٧٥٨ - ١٨٣١) اسمه الأصل أنطون زخورة راحة ، وهو من أسرة سورية معروفة تنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد في مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الديني في إيطاليا وأنقز عدة لغات وتقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم استقر في مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فاتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرق الوحيد الذي عينه الفرنسيون عضوا بالجمعية العلمية (في لجنة الفنون والآداب) . وهناك أسهم في إعداد البحوث وترجمة الوثائق التي ساعدت علماء الجمع في إعداد كتاب « وصف مصر » . وتولى روفائيل كذلك مهمة الترجمة الفورية في كثير من جلسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسم والمشورات والمطبوعات التي أصدرتها الحملة ، ومنها محاضر محاكمة سليمان الحلبي قاتل كبير ، وكتيب عن مرض الجدري أصدره « ديجنت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد ارتحل روفائيل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد إلى مصر في عهد محمد علي وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم في إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيلي الذي كان أول ما أخرجه مطبعة بولاق من كتب .

وللإشارة القليلة المتناثرة عن روفائيل في مراجع الحملة وعهد محمد علي ، وفي كتاب الجبرتي ، فقد أحطنا بتفصيلات حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية لثان من أبناء قومه هما الخوري قسطنطين اليشا ، وشارل بشاشي ، ومنهما وحدهما عرفنا أن روفائيل حاول قرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة ، وأنه هو الذي نظم

ولم يزل يفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى

○ ○ ○

جد على بلحظ العين عترأفا
وانظر الى بأسنى بركة النظر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته

فقدت حياتنا لا تخلوها من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق والسر
○ ○ ○

وعشنا للفرنسيس فلا بد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فإن هذه الأبيات المتبالكة البناء الواحية التركيب
المخالفة بأخطاء النحو والصرف والجماد قبل أخطاء العروض ، تدل على
أن ناظمها لم يكن يحظى بأية موهبة شعرية ، وأن محارلته قرض الشعر
بأنت بالفشل الذريع ، كما تدل على أن لغته العربية نفسها كانت ضعيفة
متهافنة ، الأمر الذى يؤكد ترجمته فى المنشورات وغيرها من وثائق
الحملة ، ثم فى كتاب ميكائيل الذى ترجمه محمد على ، الذى قال عنه
جناك تاجر انه « حرص فيه على حفظ المعانى ولو انه استعمل العبارات
الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » (٢٥) .

أما مضمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه
يحوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه
من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه .
إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية للقصيدة أن نستخلص
منها ما على :

داسه ، صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ،
يقول « . ولا يخفى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من
أخطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الضمائر ، بل وهجاء
الأنفاس (شكل ٣) .

أما أبيات القصيدة التى لم تنشر من قبل ، والتى لا تخلو من طرافة ،
فهذه مختارات منها بنصها :

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكربنا بها ليوم العث والخشر
حبيب وقد ذاع صيته أبدا
بطل وقد عرف فى سائر القطر
فتألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسر
وقد فاز بها على الممالك إجمالا
ظافرا بأرقابهم نصرا بالعز والقهر
وأعضع تشاخ جماعة البربر
مروضا أخلاق أهل اقليمنا المصر
○ ○ ○

فأها على ناصرى داسه ووااسفى
على اصطحنانى به لو قدر القدر
فكست أرغب وجودى بيمدافى مارنجوا
كما رافقتة قبلا بصعيدنا المصرى
فموتى عنه فداء كان بغيبه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر

— يشيد المعلم يعقوب ببطلانة ديسيه « فاتح بلادنا بناسية قبيل »
ويصفه بأنه صديده مجاهد شجاع عاقل فطن .

— يذكر بالشجاعة انتصار ديسيه على المماليك وإذلاله للممطح
« أخضع تشاخ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) هنا تعنى
الفتح ، وهى لاشك من أثر معرفة روفائيل للفرنسية . ولعل يعقوب
يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين قاوموا زحف ديسيه ، أو لعله على
أحسن الفروض يقصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المماليك
فى مقاومة الغزو الفرنسى . ويتكرر ذكر البربر فى القصيدة ويوصفون
بأنهم « أعداء الله والبشر » .

— يقول إن المصريين كانوا قديما شعبا عظيما ، ثم غدوا « تحت
الحكم الإسلامى بالطبع » عبيدا للرق والأسر ، وأن الفرنسيين هم
الذين خلصوهم من الذل والعبودية .

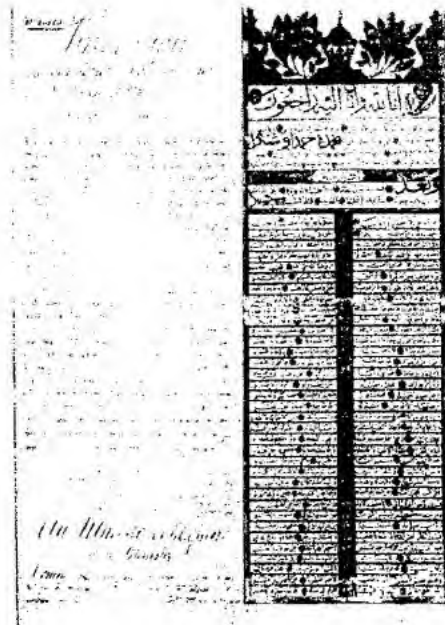
— يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه . ويتخاطب
الفرنسيين فى شخص صديقه الراحل مغربا عن خشيتهم من أن تعود مصر
إلى سابق عهدها من الذل والقهر إذا ما تم الصلح (وكان وقتئذ
متوقعا) وأخلاها الفرنسيون . ويحثهم ألا يدعوا مصر « لسابق
القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقسر » .

— لم ينس يعقوب كذلك أن يجامل بوناپرت فيشيد بانتصاراته
« وما خصه الله من العظمت والقدرة » .

— يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرنسيين « لأنهم اعتقونا من
الأشرار والشر » .

أما على المستوى الشخصى فهناك ملمح لا تغفله العين فى أبيات هذه
القصيدة . إننا نستطيع أن نستشف مما تتضمنه من عواطف مسرفة أن
العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئا أكبر من مجرد الصداقة أو
الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق وغان ،

شكل (٣) رثاء يعقوب للجنرال ديسيه (الشعر للأب روفائيل)



فهو يكرر في ذكره كلمة الحب ومشتقاتها ، وهو يمتنى أن لو كان قد مات فداء له (في معركة مارنجو) ويؤكد أن عقيدته لم يزل بفكره "خلدا أبدا حتى إلى خروج الروح من صدره . ثم هو يتأججه بقوله « جد على بلحظ العين » ، ويتأشده أن يرأف به وإن يمنحه نظرة تضيء كسنا أثيرق . ويعصور انتقاله إلى اللوكوت الأعلى تصورا ورومانسيا . يذكر فيه جمال نفسه والنور الذي يحيط به روحه وبضئ على العالم كالقمر ، « متزينا بيهاء أشعة الحب للبشر » .

من الواضح إذن أن العلاقة التي كانت تربط يعقوب بدبيسيه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبة كاملة طيلة أكثر من عام حتى تعلق به تعلقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصي . ويروي الجنرال بليار في مذكراته ، وكان من شياطين دبيسي في حلة السميد ، الكثير من الأمسيات الطويلة التي كان يرتبها دبيسيه في منزله بأسبوط وبحضرتها يعقوب مع ضباط الحملة ، وكذلك الأمسيات الباذخة التي كان يرتبها يعقوب في منزله لدبيسيه وضباطه . وكانت السهرات تمتد في هذه الأمسيات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (٢٦) .

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع أن نؤتم هذه العلاقة الشخصية أو أن نجزم بشيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنها حفرت في نفس يعقوب خطا عميقا . وكتاب الجيرون على أية حال حفل بذكر علاقات حميمة كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفي مقدمتها ما ذكره عن علاقة صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسي .

خاتمة الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وعبوات أحلام متو الاستعمارية في أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالغزو ، وإنما قطرا تم ضمه إلى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تظاهره باعتناق الإسلام الذي لم يستطع أن يقنع به أحدا من المصريين . وذلك كما نحاوت من قبل أحلام بوناپرت في أن يؤسس في هذا الجزء من العالم ملكا جديدا يقوم على أسس تخرج بين الحضارة الإسلامية ومبادئ الثورة الفرنسية ... الخ . وغادر متو القاهرة إلى جبهة الاسكندرية ، بينما بقي نائبه (قائمقامه) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحملة ، قبل الجلاء الذي لم يعد منه متر ، إلى آخر قطرة .

واصل الجيش العثماني زحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزي كذلك زحفه من رشيد ، تاركا متو محاصرا في الاسكندرية . وزاد من تحرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفكته بعدد كبير من الأهالي والجنود . ومن ثم قرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعليقات متو ، والمضي في مفاوضات العثمانيين والإنجليز فوراً لمعد اتفاق على أساس الجلاء الكامل عن مصر . وهكذا وقع بليار اتفاقاً لم تختلف موادها كثيراً عن

على راحة الاهالى وأمنهم ، وعلى ذلك « فيلزم أتم ايضا تسلكوا في الطريق المستقيمة وتفتكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الذى يفعل كل شئى والسلم » . وبناء على ذلك فقد أمن على نفسه وماله وعياله كل من تعاون مع الفرنسيين في أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحملة المسحقة إلى فرنسا وفي مقدمة هؤلاء وأولئك النعمم يعقوب (شكل ٤) .

بعد أيام قليلة من صدور هذا المنشور أرسل ابراهيم بك الذى كان يصحب القوات العثمانية الواخفة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط فخرجوا ... وسلموا ورجعوا الى دورهم » . أما يعقوب الذى كان يشترك بتيقظه في حماية ظهر قوات بليار بالقاهرة ، فانه خرج متناعا .. وعدى الى الروضة وكذلك جمع اليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهيوا الى قائمقام (بليار) وبكوا وولولوا وترجوه في إقباتهم عند عياشهم وأولادهم فأنهم فتراء وأصحاب صنائع ما بين بخار وبناء وصنائع وغير ذلك . فوعدهم أنه يرسل الى يعقوب أنه لا يقهر (أى لا يرغم) من لا يريد الذهاب والسفر معه ^(٢٧) .

واستطرد الجبرتي إلى ذكر الآخرين الذين فضلوا الهجرة مع الفرنسيين فقال « خرج المسافرون مع الفرنسيات الى الروضة والجزيرة بمتاعهم وحرمتهم وهم جماعة كثيرة من القبط ونجار الافرنج والترحمين وبعض مسلمين بمن تداخل معهم وخاف على نفسه بالخلف ، وكثير من قصارى الشوام والأروام مثل بى وبرطلين (بارتلى الذى كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان) ويوسف الحموى وعبد النال الأغا أيضا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما نقل عليه حمله » . وكان عبد العال هذا أغا الانكشارية ، أى خالدهم ، وقد أفاق القاهريين الكثير من بطشه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين من

مواد اتفاقية العريش التى وقعت من قبل في عهد كليو ثم نقضت . وكان ذلك في أواخر يونيو ١٨٠٦ .

ولم يعلم منو بتوقيع نائبه بليار لهذه الاتفاقية إلا مؤخرًا . وقد ثار عندما اطلع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه في آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية .

وقد تضمنت اتفاقية بليار للجلاء مادتين نهبان سكان القاهرة بوجه خاص ، هما المادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فرأى بليار إذاغتهما وحدهما في منشور خاص بالعربية والفرنسية موجه منه الى « جميع أهالى محروسة مصر (أى القاهرة) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قضت « بالصلح ما بين عساكر الفرنساوية وعساكر الإنجليز وعساكر العثمانية .. ، ثم استندرك يطمئن الاهالى الى أن هذا الصلح لايعنى المساس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم . وأكد لهم أن « بعوس عساكر الثلاثة جيوش قد أشرطوا بهذا » . أما نص المادتين فهو كما جاء بالمنشور :

الشرط الثالث عشر : كل واحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت الذى يريد يسافر مع الفرنسيات يكون مطلقا لإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أعياله ومصابله لم أحدا يعارضهم (في النص الفرنسى : لا تصادر ممتلكاتهم) .

الشرط الثالث عشر : لا أحد من أهالى مصر المحروسة من كل ملة كانت لا يكون تلقا من قبل نفسه ولا من قبل متناعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسى بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يطمئنون الشهيرة (في النص الفرنسى : قوانين البلاد) .

وختم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالى مصر وأقاليمها جميع الملل » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل

LE GENERAL DE DIVISION
BELLIARD,
Commandant le Kaïre et les Troupes de l'Arrondissement,
Aux Habitants du Kaïre, de toutes les Religions.

في حوزة لكم لعمري السيد بلليارد جنرال مصر
هذا في جميع هذه المهره

في هذه الزمان قد وقع بعض من مناصري
الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن
مع هذا السيد بلليارد والارمن والارمن
منهم الذين مناصريهم من غير ان يتركوا
في هذه الزمان في هذه الزمان

الفرس الذين مناصريهم
في هذه الزمان من مناصريهم من كل هذه
الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن
منهم الذين مناصريهم من غير ان يتركوا
في هذه الزمان في هذه الزمان

الفرس الذين مناصريهم
في هذه الزمان من مناصريهم من كل هذه
الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن
منهم الذين مناصريهم من غير ان يتركوا
في هذه الزمان في هذه الزمان

في هذه الزمان من مناصريهم من كل هذه
الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن
منهم الذين مناصريهم من غير ان يتركوا
في هذه الزمان في هذه الزمان

في هذه الزمان من مناصريهم من كل هذه
الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن
منهم الذين مناصريهم من غير ان يتركوا
في هذه الزمان في هذه الزمان

الفرس والارمن والارمن والارمن والارمن

« La volonté de Dieu nous permettant, la paix venue de se conclure entre les armées française, anglaise et ottomane, nous par cet arrangement vos personnes, vos religions, et vos propriétés ne cessent d'être respectées. Les trois puissances se proposent d'engager leur honneur, comme vous pouvez en juger par les deux articles du traité de paix récemment conclus. »

ART. XII.
« Tout habitant de l'Égypte, de quelque religion qu'il soit, qui voudra suivre l'usage français, sera libre de le faire, sans qu'après son départ sa famille soit inquiétée, ni ses biens confisqués. »

ART. XIII.
« Aucun habitant de l'Égypte, de quelque religion qu'il soit, ne pourra être inquiété ni dans sa personne, ni dans ses biens, pour les raisons qu'il aurait eues avec les Français pendant leur occupation de l'Égypte, pourvu qu'ils se soient conformés aux lois du pays. »

Habitants du Kaïre et de l'Égypte, de toutes les religions, vous voyez que nous ne doutons pas que les Français n'aient voulu de voir la votre respectée et à votre religion, nous sommes dignes de tout ce que nous avons fait pour vous, en ne vous laissant pas de la même sorte, nous nous sommes de Dieu ne pouvons, que c'est lui qui dirige toutes choses.

Le Citoyen de Division.

Signé BELLIARD.

à la Citoyenne du Kaïre, de l'Imprimerie Nationale.

القاهرة كتب الجبري يقول إنه « حضرت جماعة من عسكر القبط الذين كانوا ذهبوا بصحبة الفرنساوية فتخلفوا عنهم ورجعوا الى مصر (القاهرة) » (٢٨).

ومؤدى كلام الجبري في الفقرات السابقة أن معظم عسكر القبط القبطي رفضوا السفر مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا مناجاة أمام نائب القائد العام حتى لا يرتكب أحد من أبنائهم على السفر مع قائدهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المسيحيين (ربما لتأمين الطريق) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على اطمئنان أبناء الأقليات ، وخاصة الأقباط ، إلى البقاء في « مصر المحروسة » مفضلين ذلك على مخاطر السفر إلى الجيول صحة يعقوب. ومن معه حرص السلطات العثمانية التي دخلت القاهرة على تكرار المناداة بالأمان وتأكيد القول بالفعل ، في محاولة دائمة لاكتساب تأييد ساكني مصر جميعا ، والمحاولة دون حدوث أية اضطرابات طائفية تغل بالأمن ، مما أشاع جوا من التسامح والتجاوز عن الماضي والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة في العلاقات بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء عن القاهرة « تودى بأن لا أحد يتعرض بالأدوية لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإنهم من رعايا السلطان والمناشي لا يعاد » (٢٩).

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحملة الدعائية إلى الأقاليم ، مع التماس العذر لمن تعاون مع الفرنسيين . ويقول الجبري : « كتبت فرمانات (أي منشورات) وأرسلت إلى بلاد الشرقية والموقية والغربية مضمونها الكف عن أذية النصراني واليهود وأهل الذمة وعدم التعرض لهم وفي ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم » (٣٠).

وأكثر من هذا فإن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعينوا بكنية الأقباط وصيارفهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأول ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) قرئت قرارات (أى منشورات) صحيفة عثمان كئندا (نائب الولى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكنية الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطى ، ومقدمهم في تحرير الأموال الميرية ... (٢١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطئ رشيد لنقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والنصارى . ورافق يعقوب من أسرته والدة وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غريبال سيد أروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكنية والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرافطة بالاس (Pallas) ، وهى السفينة

وأكثر من هذا فإن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعينوا بكنية الأقباط وصيارفهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسى ، وأن يعلنوا ذلك على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففى شهر جمادى الأول ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) قرئت قرارات (أى منشورات) صحيفة عثمان كئندا (نائب الولى العثمانى) وفيها التنويه بذكر أعيان الكنية الأقباط والوصية بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملطى ، ومقدمهم في تحرير الأموال الميرية ... (٢١) .

* * *

كانت السفن الإنجليزية بقيادة الأدميرال اللورد كيث (Keith) ترسو قرب شاطئ رشيد لنقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، بينما كان منو بقواته ما زال بمنطقة الاسكندرية .

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والنصارى . ورافق يعقوب من أسرته والدة وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخته غريبال سيد أروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه فيها أن يقنع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تنتفع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بنى قومه من كبار الكنية والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم محاولة بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد .

ركب يعقوب ومن معه الفرافطة بالاس (Pallas) ، وهى السفينة

قصة شروع الاستقلال

لم تنته حكاية المام يعقوب بإيماره من الشواطئ المصرية ولا بوفاته ، وإنما على العكس بدأت بذلك قصة من أغرب القصص التي ذيل بها تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، والتي شغلت لغزائها عددا من المؤرخين ، ذهبوا في تأويلها والتعليق عليها مذاهب شتى تأرجحت بها بين الحقيقة والأسطورة . ويشارك يعقوب بطولة هذه القصة مغامر ثوروزي شاب اسمه تيودور لاسكاريس (T. Lascaris) ، وهو شخصية غامضة متهتزة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أقفلت السفينة بالأسر بعد وفاة « المعلم » فمن هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة (أى أنه كان وقت الرحيل عن مصر في السابعة والعشرين من عمره) ، وانخرط هو وأخ له في سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التي غزاها بوناپرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتمى منها من أتباعهم وقضى على سطوتهم (شكل ٥) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار إليهم بوناپرت في منشوره العرفي الأول إلى المصريين بكلمة « الكوالمرية » ، وهي تعريب للكلمة الإيطالية (Cavaleri) بمعنى

تنسبها التي أقفلت الجنرال بليار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت بالأسر بقيادة القبطان جوزيف إدموندس (J. Edmonds) في ١٠ أغسطس متجهة أولا إلى قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا الصغرى . وبعد أن أقفلت السفينة ببومين أصيب يعقوب بالحمى ، وما لبث أن اشتد عليه المرض ومات في عرض البحر ، بعد أربعة أيام ، في ١٦ أغسطس . وقد كانت آخر كلماته وهو يحتضر للجنرال بليار أن يدفن مع صديقه ديسيه في قبر واحد !

ولم يلق ريان السفينة نجدة يعقوب إلى البحر كالعتاد في مثل هذه الحالة ، بل استمع إلى رجاء من معه فاحتفظ بالجثة في دق من الخمر حتى وصلت السفينة إلى مرسيها . وهناك تم دفنها في جبانة المدينة .



فرسان ، قتال بالصلب ، إن الفرساوية هم أيضا مسلمون خالصون ، وإثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى (كذا) وخرجوا فيها كرمي البابا الذي كان يبحث دائما للتصاريح (كذا) على عبارة الإسلام ثم قُصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوكالبيري الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. (شكل ٦) . ونقول بعض مراجع الحملة ، بل ويقول بونايرت نفسه في مراسلاته ، إن الأخوين الفارسيين كانوا مصابين بلون من الحوس وشلوة الأهواء وإن كان بطلنا أخف حالة من أخيه الذي وصل به الأمر إلى حد الجنون .

كان تيودور لاسكاريس ذا عقل مغرق في الخيال ، وقد صاحب حملة بونايرت إلى مصر ، وهناك تقلد بعض المناصب الإدارية في خدمة حكومة الحملة . وأطلق لاسكاريس لحياله العنان فأخذ يقترح على سلطات الحملة — وخاصة أيام منو — عدة مشروعات غير عملية ولا مدروسة ، مثل إقامة عاصمة جديدة لمصر عند تفرع النيل برأس الدلتا يطلق عليها اسم « منو بوليس » تخليدا لاسم الجنرال منو ! ومثل تمكنه من ضبط مياه النيل واستزراع الصحراء .. الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله منو التي ذكر فيها بعض هذه المشروعات بديهة تلقى الضوء على تفكيره العقلي وأسلوب تفكيره . قال لاسكاريس لمنو : إن القدر يبيء لكل إنسان في هذا العالم الطريق الذي يسلكه . فهناك من هيا له القدر أن يكون من الغزاة الفاتحين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع أحمدة . ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسي الدول والمشرعين ، بينما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر وينجيوا الأطفال .. الخ . أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول « إنني كثيرا ما ارتفع بنفسى فوق عالم الواقع لكي أخطط لمشروعاتي ، وأترك لحياي أن يذل كل ما قد يعترضها من عقبات . آه ما أجهل الخيال ، إلى لأحد فيه سعادتي » . ولكن منو لم يأخذ مشروعات لاسكاريس يوما مأخذ الجيد ، بل كان كثيرا ما يحلو له أن يجازحه ويسخر من خيالاته ويخض بما يتلبسه من

إلى سوريا - وبعث القائد برسالة إلى يعقوب تتضمن هذا المعنى ، وكان ذلك في مارس ١٨٠٦ عندما تأزمت أمور الحملة وأوشك الفرنسيون على تسليم مصر إلى العثمانيين . وهكذا لارم لاسكاريس يعقوب منذ ذلك الحين حتى غادرا مصر سوريا ، أى طيلة خمسة شهور . وكان هذه المعشرة ولاشك أثرها في القصة التي جرت أحداثها فوق سطح السفينة بالاس .

مسرحية بحرية

تبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة ، الذي قدر مكانة يعقوب في قومه ولدى الفرنسيين على السواء ، فخصه بشيء من الحفاوة والتكريم . وفي هذه اللقاءات تبادل الرجلان عدة أحاديث كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما . وقد دارت موضوعات الأحاديث حول مصر ، حاضرها ومستقبلها . وفيها أداّن يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثماني لمصر ووصمه بأسوأ النعوت . وقال إنه أيد الاحتلال الفرنسي للتحقيق مما حاق بمواطنيه من أذى وما وقع عليهم من ظلم واضطهاد . وأضاف يعقوب للقبطان إدموندس من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعياً وراء تحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية . ووضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار لاسكاريس التي سبق أن عبر عنها في مشروعه الذي قدمه إلى الجنرال متو قبل أن يلتحق بالعمل مع يعقوب .

ولما كان ميزان القوى قد مال ، وانتهى الوجود الفرنسي بمصر على يد العثمانيين والإنجليز معا ، ولما كان يعقوب يبحر هو ومن معه على سفينة إنجليزية ويتحدث إلى قائدها الذي أكرمه وكان به حفيّا ، فقد رأى هو

بالفرنسية من عدة أجزاء . وسلمها للربان الإنجليزي . وهي مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « بالاس » قد ألفت مراسيها في هذا الميناء ببضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس في إحدى عشرة فقرة مرقمة ، تتناول كل منها جزئية من جزئيات الموضوع . ويلفت النظر في هذه المذكرة أن بعض العبارات تتخللها فراغات ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة للمفاهيم ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحته .

قدم لاسكاريس لغفقات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحداثنا السياسية على ظهر سفينته » . ويمكن تلخيص أهم ما تضمنته هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلي :

١ - ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سندا له لدى الحكومة البريطانية .

٢ - قال إن مصر جديدة بأن تؤيد الحكومات الأوربية مشروع الوفد الذي فوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعترافا بغضلها على الحضارة ، فعلى الأقل من قبيل العطف عليها .

٣ - أشار إلى احتمال أن تقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموضحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك فانه سوف يكون بتأثير الوفد المصرى في باريس ، مع ملاحظة أن تحقيق هذا المشروع ليس في صالح فرنسا بقدر ما هو في صالح بريطانيا .

أو مترجحه أو هما معا — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهزومة بوصفها القوة الأوربية التي سوف يعتمد عليها في تحقيق انسلاخ مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدفة مع تحول التيار نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب في أحاديثه مع الربان الإنجليزي إنه عندما رأى أن يعتمد في تحقيق غايته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين خدعوا المصريين وأن مواطنيه يحتقرونهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مستحيل بدون تأييد الحكومة الإنجليزية !! ومن ثم فهو يرجو القبطان إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيسه قائد البحرية ليرفعه بعرفته إلى حكومته .

وأراد لاسكاريس أن يعضى على هذه الأحداث التي لم تستمر لأكثر من يومين (بين إبحار السفينة ومرض يعقوب) أهمية خاصة ويسمى عليها طالما رحيا ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلاله لإدموندس أن الخنرال يعقوب إنما يسافر على رأس « وفد مصرى » اختاره أعيان البلاد ليتفاوض الحكومات الأوربية المعنية في موضوع استقلال مصر .

* * *

وبدأ الفعل الثانى من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس ، وقد انفرد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصرى باق رغم موت رئيسه . واتفق مع إدموندس على أن يعد له مذكرة يسجل بها الموضوعات التي دار حولها الحديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكي يرفعها إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال اللورد كيث . وتعمد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سرا حتى لا يتسرب إلى جهة قد تقصد الخطأ .

وقد عكف لاسكاريس بالفعل في ميناء طولون على كتابة مذكرة

الاستبداد التركى . فلتكن الحكومة الجديدة إذا عادلة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد (التى قضى عليها على بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بنحو ثلاثين عاما) .

٨ - من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن يتهاجم الدول الأوربية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن تترد عن مصر عدوان الأتراك والممالك . وفى الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفاع أجنبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والممالك جميعا ، وتكون هذه القوة نواة لجيش وطنى . ثم إنه يمكن شراء ذمم العثمانيين بالمال حتى لا يفكروا فى الهجوم على مصر .

٩ - من حيث الأمن الداخلى قال إن الشعب فى مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوفد المصرى على صلات بهذه الطوائف جميعا دون ما تحيز ، وأن هذه الصلات لا يعلم بها جهاز الحكم التركى السيد ، ولا كانت العاقبة وخيمة على هذه الدعوة للاستقلال .

١٠ - أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوربية بوجه خاص ، سيبدلون كل ما يوسعهم من جهد ليحرروا من ذلك النير الذى يثقل كامل بلادهم النعمة ، وأن المشروع السياسى الذى يسمى الوفد لتحقيقه هو فى صالح الدول الأوربية جميعا ، بل وفى صالح تركيا كذلك .

١١ - قال انه اذا خاب معنى المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أملهم ، وعاد العثمانيون إلى امتلاك مصر ، فإن المهاجرين

٤ - حث الإنجليز على أن يتهروا هذه الفرصة التاريخية التى توشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تنداعى من كل جانب ، فيضنوا لأنفسهم السيطرة على مصر . وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما امتحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأنسب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفى الوقت نفسه خاضعة لنفوذ بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا تحكم مركزها الخاص فى الهند سوف تفيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بخصايصها الوفيرة وبجاراتها مع قلب افريقيا .

٥ - أكد أهمية إحكام النفوذ البريطانى لا مجرد السيطرة التجارية على مصر . فقا : تعود فرنسا كما كانت حليفة للباب العالى ، وعندئذ قد ينخد العثمانيون من الاجراءات ما يؤدى الى تعطيل التجارة الانجليزية فى الشام والبحر الأحمر .

٦ - ندد بحكم الفرنسيين لمصر فى أثناء احتلالهم لها ، وأشار الى ما سبق أن ترد فى الأحاديث مع إدومندس من كراهة المصريين لهم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ - اعتذر عن عدم الخوض فى تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتغيير المطلوب لن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادئ معينة ، وإنما سيكون وضعنا نفرضه قوة القاهرة على شعب مسلم جاهل لا يكاد يحرك أفراد سوى عاطفتى المصلحة والخوف . ومن ثم فيكفى أن ترفع الحكومة الجديدة قليلا من المستوى المادى للشعب فتسال تأييده ومساندته . ولا شك أن أى نظام للحكم سيكون أفضل من

فستنت (S. Vincent) وزير البحرية البريطانية . وقد أثر إدومندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متخطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب ولاسكاريس من إدومندس ، وذلك أخذاً بالأحط وإبراء لذمته ووفاء بعهده . وقد برر هذا التخطي الإداري في رسالته إلى الوزير في بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله « استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتلى هذا اعتقاداً منى بأنه قد يكون من المفيد للحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم الوفد المسمى موجودون الآن في باريس » . وختم الرسالة بقوله « ... رأيت من الضروري إبلاغكم رأساً بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن نتاح لي فرصة إبلاغها أولاً إلى قائد العام اللورد كيث ، وأمل أن تفضلوا فتقدروا مسلكى هذا » .

ضمنَ القبطان إدومندس رسالته التي قدم بها المذكرات إلى الوزير خلاصة موجزة لما حدث به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من زعماء طائفة الأقباط وله فيها نفوذ كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائداً لقيلى من أبناء طائفته ليأثروا تأييده . وأكد أنه أعطى موثقاً لحدثه بالألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداماً يمكن أن يسيء إليه هو ومن معه . ولكن إدومندس أبدى تحفظه إزاء نقطتين :

١ - فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذي كان يترجم بينه وبين حدثه من أن يعقوب يرأس وفداً قوضه أميان مصر لمفاوضة الدول الأوروبية في استقلال هذا البلد . . لا يمكن تقدير مدى ما يحمله (الوفد) من تفويض وما يملكه من صلاحيات .

٢ - وكذلك تشكك في حقيقة الدور الذى يقوم به لاسكاريس . فهل هو عضو في هذا (الوفد) أم أنه مجرد سكرتير مترجم

المصريين يرجون أن تدبر لهم الدول المتعاقدة ضماناً بقيمة شر انتقام السلطات التركية إذا ما رجعوا إلى وطنهم .

١٢ - حذر من تسرب خبر هذه « المناقشات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمجد له من « مفاوضات » . فحطه الوفد هي إقناع الجانب الإنجليزي أولاً بمشروعه ، والسعى لأن تكون فرنسا نفسها هي البائدة بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ... وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ - رتب طريقة الاتصال بالوفد المصرى في باريس باستخدام « شجرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد بقم بأوربا . (وهو مصرى قبلى اسمه انطون فيس عمل طويلاً في خدمة امبراطورية النمسا مستظلاً بمحاميتها في مصر ، ثم استقر في تريستا وأصبح يدعى الكونت أنطون كاسيس : A. Cassis) .

ويتمنى الفصل الثانى من القصة بإقلاع ادموندس بسفينته الى جزيرة مينورقا غرقى البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأفرغ حوصلته البشرية بما فيها جثمان الجنرال يعقوب على الأرض الفرنسية .

* * *

وينسح مسرح الأحداث في الفصل الثالث ليتم من ميناء مرسيليا في جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التي رما بها إدومندس . فعلى ظهر السفينة باللاس هناك ألقى القبطان الإنجليزي بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دجها إلى إيرل سانت

ليونابرت « سيضعون مصر من النظم ما يرضاه لها الفصل الأول .

— تعلق لونايرت ومناشدة له أن ينزل فيمد يد المساعدة « المصريين النعاء » الذين حطم في الماضي أغلالهم ثم عادوا بنوعون بها من جديد ، من أجل مجده ومصلاحة فرنسا .

— إشارة إلى « الفتح العظيم » الذي ناله بونايرت ثم فقدته (بالجللاء عن مصر) ، وتأكيده أن القائد الفرنسي إذا أيد في اتفاقيات الصلح أن تكون مصر مستقلة ، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته تلك مائة مرة .

ولم يكتف لاسكاريس بهذه المذكرة التي حاول بها إقامة جسر بين المهاجرين المصريين والحكومة القنصلية في باريس ، وإنما أودعها بمذكرة أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية وقّعها كذلك « عمر افندي » . وفي هذه المذكرة :

— إعلان لولاء الوفد المصري — الذي فقد زعيمه يعقوب — وحيه للجمهورية الفرنسية .

— رجاء إلى الوزير الفرنسي بأن يفضل الوضع الودع وبمجموعة المهاجرين في كنفه ونحوت رعايته .

— تأكيد أن الوفد المصري يمثل شعب مصر نقيلا كاملا ، ويعبر عن أمان هذا الشعب وما أجمع عليه .

— تحديد مطالب المصريين في نقطتين : سحق القوة العاشقة التي عادت تستبد بهم من جديد ، والاعتداد على فرنسا في تحقيق هدفهم الذي يخدم في الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها .

— تكرار ما تضمنته المذكرة الموجهة إلى الفصل الأول من أن فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد قبل توقيع اتفاق الصلح مع بريطانيا ، أن تعوض ما خسرتة بالجللاء عن مصر ، وأن تحتفظ للأبد

ليعقوبه . ثم وصف لاسكاريس بأنه رجل « مغرق في الخيال » .

وماثان الوليقتان (مذكرة لاسكاريس ورسالة إدموندس) مازالتا محفوظتين بوزارة الخارجية البريطانية . وكان أول من أشار اليهما الأستاذ شفيق غرياني وأول من قدمهما بتصميمهما (في كتاب طبع بمصر) المؤرخ الفرنسي جورج دوكان (G. Douin) (٣٤) .

أما على الطرف الآخر من المسرح ، فقد شغل المهاجرون الذين نزحوا إلى الشاطئ ، الفرنسي بتشجيع جنائ يعقوب إلى منوال الأخير في مقبرة بخارسيليا . وببها كانوا يتصمون الإجراءات الصحية بمحجر الميناء كان لاسكاريس بعد لشهد جديد . فقد بدأ بخطوة أخرى يكمل بها محاولته الأولى مع الحكومة الإنجليزية ، فحرر مذكرة بالفرنسية كذلك إلى « الفصل الأول » بونايرت . ولكنه للحيلة لم يوقع عليها ، وإنما جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة المهاجرين المصريين هو « عمر افندي » ، وذلك « نيابة عن الوفد المصري » . وصاحب هذه الشخصية التي ظهرت فجأة على مسرح الأحداث والتي تسر وراءها لاسكاريس هو سورى مسيحي كان يعمل مترجما للغات الشرقية في مصر ، واسمه لطفي (أو لطف الله) عمر (٣٥) .

وتضمن هذه المذكرة الموجهة « إلى الفصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصري الذي يكن له أعظم التقدير » النقاط التالية :

— إرسادة بتاريخ مصر القديم وحضارتها التي كان يتلقى عنها دروس العالم والعرفان مشرعو الإغريق (مثل سولون) .

— تنويه بإنجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة في الحرب والمسلم ، وبخاصة تحب حكم بونايرت .

— إن الوفد المصري الذي فوضه المصريون « الباقون على ولائهم

بنفوذها السياسي في الشرق .

— تأكيد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها نحو أواسط أفريقيا بواسطة مصر التي لن تكون إلا موالية لها « وهكذا يتحول ترككم مصر للإتحاد من نكبة إلى سبب مجد للقتل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية ... ! »

— مناشدة الوزير أن يستقبل الوفد المصري في باريس ويستمع إلى تنصيصات ما أجمله في رسالته ، وأن يفضل فيعمل على أن تصل رسالته الأخرى المرفوعة إلى القنصل الأول ، وأن يتنزل هذا بالرغم من ثمين وقته فيطلع عليها .

وهاتان المذكرتان أو الرسائلان ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة في مقال كتبه المؤرخ الفرنسي أوربان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ (٣٦) ، ثم ترجمهما جاد بضع سنوات الأستاذ شفيق غريبال وألحقهما ببعده المشار إليه من قبل .

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكون في مجموعها ما سماه عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، وتنبهوا إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصري . ومن ثم رأى بعضهم أن يحددوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن فحصل في حجبته وهو يغادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع الاستقلال الأول » .

وبادئ ذي بدء ينبغي أن نحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذي مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التي غادر مصر

على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه ومترجمه الذي نقل فجوى أحاديثه إلى قبطان السفينة ثم صاغها في تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشترك الرجلان في هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصري » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد مفوض من قبل الشعب المصري أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذي فوضه أو أوفده بالضبط ؟ لتأمل ما يلي من ملاحظات ، فعمل فيها ما يجب عن هذه التساؤلات :

١ - إذا كان يعقوب قد عبر عن أمنيته في استقلال مصر أو بعبارة أصح في انسلاخها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا بمستبعد على رجل كان له ما رأينا من نزعات وطموحات ومواقف . غير أن المشروع المكون بضمين بعض الأفكار الفلسفية والحقائق التاريخية والسياسية التي تدل على شيء من خلفية ثقافية تحسب أن يعقوب كان يحكم نشأته وتكوينه أعد ما يكون عن اكتسابها . وتكفي الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حضارة مصر القديمة وصلتها بالحضارة اليونانية ، وعن المشرع سولون ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا بالهند ، ونظام الحكم الفرنسي .. الخ ، ليرجع لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب .

٢ - إن لاسكاريس كما علمنا هو الذي سبق أن تقدم إلى الجنرال منو بمشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقق به القائد الفرنسي وأصبح صاحبه سخرية .

٣ - إن المشروع بما رددته من أوامهم وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتفاقا وشخصية لاسكاريس المترف في الخيال الذي « يعيش في عالم كامل من أحلام اليقظة » وذلك مثل إنشاء القوة الأجنبية المترفة ، واتفاق الدول الأوروبية على ضمان استقلال

٧ - إن إرسال إدموندس للمذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على اقتناعه بأنها تتضمن حديث يعقوب الذى أخذه « مأخذ الجدل الخطير » كما يقول الدكتور لويس عوض^(٣٧) . فلم يكن في وسع القبطان الإنجليزي أن يغفل هذه المذكرات مهما كانت شكوكه في جدتها أو أهميتها ، فهو جندى رأى من واجبه أن يحظر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينته في تلك الأيام الحرجة ، وبخاصة أنه لم تكن لديه أية خبرة أو معرفة سياسية بخلفية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه (أكثر من مرة) إزاء صحة لاسكاريس وحقيقة العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما بيد الوفد المصرى من تفويض . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال . وإذا كان إدموندس قد ذكر في رسالته لرئيسه أن الجنرال يعقوب أبلغه بكذا أو أعرب له عن كذا فلم يكن - كما نعلم - ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له المترجم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبداً ، بعد ما تبيننا من غرابة أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرف أحاديث يعقوب لكي تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يديره لاسكاريس من اتصال مضاد بالسولتولن الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى الوزير البريطاني أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكاً لحقيقة ذلك الفارس الخيالى الذى يبارز طواحين الهواء !

٨ - لا يوجد أى دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفداً منوذاً من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فإذا كان علماء الأزهر ومن إليهم مثلاً قد فوضوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الجبرى ليغفل تسجيل هذا الحدث ، وهو الذى سجل من أحداث تلك الأيام

مصر ، وتقدير شعب للإنجليز وإدراكه لقوتهم ، وأن مصر المستقلة لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا !

٤ - إن يعقوب الذى تعاون مع الفرنسيين في أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأينا ، وأصبح وفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، ليعقل أن يتحول فجأة إلى ذم هؤلاء الفرنسيين والتنديد بأساليبهم في حكم مصر ، وإلى الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومناشدتها العمل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليبها على فرنسا . وحتى إذا سلمنا جدلاً بأن يعقوب قد تحول بولائه فعلاً إلى الإنجليز ، فكيف يمكن أن يكون في الوقت نفسه وراء المذكرتين المرسلتين إلى بونايرت وتاليران ؟

٥ - إن التناقض البين ، والذي يثير السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك في جدية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسى يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلوانى الذى يتفق تماماً وشخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذى لم يكن خياله يوماً ، بالرغم من طموحاته ، في جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائماً بسلوكه وتصرفاته رجلاً جريماً معتاداً بنفسه تغلب عليه النزعة العملية ، وإن كانت أحياناً غير منبصرة .

٦ - إن ملازمة لاسكاريس ليعقوب بضعة أشهر قبل جلاء الحملة لا تعنى مطلقاً أنه عيّر في مذكراته تعبيراً دقيقاً عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين ، فلم تكن ظروف مصر في تلك الأيام لتبني عن تلك التفورات والأحداث التى وقعت فيما بعد ، حتى يخاطر على بال رجل مثل يعقوب أن يتصل بالإنجليز ليرمى عليهم مشروعا ما .

الأقباط ونصارى الشام والمترتبة وبعض المسلمين الذين يحشون
مواجهة سلطات الحكم العائد كعند الحال أعما الأوكشارية .
ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأى مقياس وفدا مصريا
يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالحديث عن « وفد مصرى » يمثل مختلف طوائف مصر
ويزعمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يغدو مقولة وإهمية
تفتقر إلى السند والبرهان .

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول
يعقوب على تفويض من زعماء القبط . فلم تكن لأى منهم
اختصاصات سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح ،
ولم كانوا دائما يؤثرون السلامة والبعد عن المشكلات . ولم
تكن مثل هذه الخطوة كذلك لتقوت مؤرخا كالجيرى أو من
أرخوا للحسنة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله
فعلا بعدد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور لويس
عوض معلقا على ذلك بما يوحى بربط هذا الاجتماع بمشروع
الاستقلال « ولا نعلم على وجه التحقيق ماذا دار فى هذا
الاجتماع ، وهل كانت له صبغة سياسية أم أنه كان قاصرا على
مناقشة المسائل المالية ، ولعله أطلعهم على مشروعه
ونوابه(٣٨) » . هذا مع أن الأستاذ شفيق غربال أثبت نقلا عن
حمصى وغيره أن هذا الاجتماع كان لتفويض يعقوب فى مطالبة
الحكومة الفرنسية ببرد مبلغ من المال أفرضه كبار الأقباط
للجنرال متو عندما نازمت أحوال الحملة فى أواخر
أيامها(٣٩) .

كان يعقوب فى حقيقة الأمر هاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم
تكن له فى وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسنده فى موضوع
خطير كالتفاوض من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين فى
ذلك الوقت . حتى فيلقه القبطى كان قد تشتت بددا كما رأينا
قبل رحيله . وأتسنى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ
من آمانيات شخصية هو أن تنسلخ مصر عن دولة الخلافة
العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تحتضن أقبليها وتزود
عنها مطوية الأغلبية .

١٠ - كان المهاجرون الذين رحلوا فى ذيل الحملة الفرنسية أشتاتا من

فرنسا أو غيرها . ولجأت بريطانيا كذلك إلى استئالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها ، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإتحاد بزعامة محمد بك الألفي . وقد سافر الألفي مع القوات الإنجليزية المنسحبة ، وبقي في لندن مدة انفق خلالها مع المسؤولين البريطانيين على أن يتمكنوا من تولي السلطة في مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات ، مثل حماية السواحل المصرية . غير أن حزب الألفي فشل في تحقيق هذا المخطط ، واستقر الأمر في مصر ل محمد علي . وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادة فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧ ، ولكنها ردت على أعقابها . وظلت بريطانيا — كما نعلم — طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النفوذ الفرنسي فيها ، حتى نجحت في احتلالها عام ١٨٨٢ .

وفي فرنسا لم يكن حظ مذكرتي لاسكاريس بأفضل من حظ مذكرته المطولة إلى الحكومة البريطانية . فلم يبد بونابرت ولا تاليران أدل اهتمام بالرسالتين ولم يأخذوا ما جاء فيها مأخذ الجد ، وتم تحويلهما بدورهما إلى محفوظات وزارة الخارجية . وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا المضادة لجهود بريطانيا في محاولة الاستيثار بشئ من النفوذ في مصر . فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك بزعامة عثمان بك البرديسي ، ولكن حظها لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفي في مواجهة نجم محمد علي الصاعد . ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد علي نفسه حاولت فرنسا عن طريق تصدير الحيرة والثقافة لا الاعناد على الأقليات ، أن تتسلل إلى مختلف المجالات في دولة مصر الحديثة التي أقامها ذلك العاهل الكبير . ثم تنامت محاولاتها في عهد خلفائه حتى نجحت منافستها الكبرى في احتلال البلاد أيام نابليون .

وعلى أية حال فقد انفتحت الدولتان في معاديات الصلح على إعادة

خاتمة الفصلات

كيف انتهت أحداث هذه القصة المثيرة ؟ إن هذا التساؤل الذي يفرض نفسه الآن يتطلب أن نجيب عن شقين : ما الذي أدت اليه هذه الانهيارات ، أو بالأحرى محاولات الاتصال ، مع حكومتى القوتين العظميين في ذلك الزمان ، بريطانيا وفرنسا ؟ ثم ... ماذا كان مصير أعضائها ، ومعهم أولئك الذين خرجوا من مصر مهجرين إلى انجلترا ؟

● إن مذكره لاسكاريس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية ، بالرغم مما توافرها من ضمانات إجرائية ، لم يكن لها أى أثر أو صدق على أى مستوى . فقد أهمل أمرها تماما ، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها « لإيداع في محفوظات وزارة الخارجية » . هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف ، منذ نجحت مع العثمانيين في إخراج الفرنسيين من مصر ، عن السعي لمحاولة احتلالها أو إقرار نفوذها فيها . فقد بنى الأسطول الإنجليزي في المياه المصرية ونهبت بعض القوات الإنجليزية في مصر حتى سنة ١٨٠٢ . وفي الوقت نفسه بذلت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع الباب العالي لمنع وقوع مصر بالذات في يد

اللغة الفرنسية للأمرء ، وبخاصة إسماعيل بن محمد علي (الذي فتح السودان وهناك قتلته نمر ملك شندي) . ثم مات لاسكاريس في القاهرة عام ١٨١٧ في ظروف مريبة . وقيل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد علي لأنه أقحم نفسه أكثر من اللازم في المسائل السياسية . وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالي المغامر ، الذي بدأ وانتهى كما وصف نفسه « صاحب مشروعات » .

مصر لحظيرة الدولة العثمانية . وتم إدماج هذا الاتفاق في معاهدة الصلح النهائية التي وقعت في أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التي أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يدور في خلد أي من الدولتين المتنافستين على مصر خاطر يتصل بتطوير ما في بنية الحكم يتفق لولا من الاستقلال أو الرفاهية للشعب المصري ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المالكين أو استبداد الحكم العثماني ، كما جاء في مشروع الاستقلال المزعوم .

• أما المهاجرون الذين أقلتهم الفرقاطة بالاس إلى الشواطئ الفرنسية فقد كان مصيرهم التشقت والضياغ . لقد أغفلت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم تستقبل منهم أحدا ، ولم يعرهم المسئولون أي اهتمام . وعاد نفر منهم لوطنتهم بعد قليل ، وظل الباقيون هناك بها للفقر والفاقة ، بل إن بعضهم — كما ثبت وثائق وزارة الخارجية في باريس — لجأ إلى السلطات الفرنسية مستجديا فمحتجهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن ذابوا في المجتمع الفرنسي^(٤١) . ولم يترك أحد منهم في التاريخ ذكرا إلا الشاب القبطي « إليوس بقطر » ، الذي كان في الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الرحالين عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية وأجادها واشتغل بالترجمة والتدريس في باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسي عرقي تم طبعه بعد وفاته^(٤٢) .

وأما فارسانا الدون كيشوتي ، النبيل البيدمونتى^(٤٣) الحالم لاسكاريس ، فقد ظل — كما قال الأستاذ شفيق غريال — « يضرب في بلاد الشرق سنين ، يحد ذهنه بالمشروع بلو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة في بلاد القوقاز ولبنان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الجيل السياسي أو لتسوية مشكلة الوهابية . وهو أبها حل يحوطه جو من الظنون والارتياح من جانب الرجال للرسميين ، وحظه الحزن والفاقة »^(٤٤) . وانتهى المطاف بالفارس المغامر إلى مصر ، حيث أخذ يتكسب بتعليم

في هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق .

وليس من العسير في ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي كان محور هذه الدراسة ، وهو : هل يعقوب خائن لقومه وبيلاده ، باع نفسه للمحتل الغاصب وتغافل في خدمة مصالحه ؟ أو هو - على النقيض - بطل وطني وضع أول مشروع لاستقلال مصر ، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين ؟

ينبغي أن نقدر أولاً أنه لم يكن قد تبلور في مصر في ذلك الوقت شعور وطني خالص . لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتراتها الحضارية المشترك من لغة وتقاليد وعادات ، ولكن على أساس أن مصر جزء من « دار الإسلام » يتعاش فوق أرضها شعب غالبيتها من المسلمين مع أقلية من الذميين الذين حددت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم ، دون ما تعصب أو تطرف . ومن هنا فقد قاوم المصريون الحكم الفرنسي وثاروا عليه في القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحرى والصحيد ، ولكنهم كانوا بوجه عام متقبلين للحكم العثماني المملوكى بالرغم من مساوئه . وكانوا أحياناً ما يقاومون بالغضب والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم مملوك ، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية وطنية ، على شكل السيادة أو نظام الحكم .

ولم يشهد التاريخ طفلة ما يقرب من ثلاثة قرون قبل عبيد الحملة إلا عااولتين فرديتين للانتفاض على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكى أوها مما ، كانت أولاهما فورة همام بن يوسف زعيم قبائل الموارة بالصحيد ، الذى استقل بالمنطقة الممتدة من ليبيا حتى حدود مصر الجنوبية حوالى عام ١٧٦٥ ، ثم كسر على بك الكبير شوكتة وقضى على حكمه بعد أربع سنوات . وكانت المحاولة الثانية على يد على بك الكبير نفسه الذى كان شيخاً للبلاد ، أى زعيماً للمماليك مصر ، وتمرد على سلطة الباب العالى واستقل بمصر عام ١٧٦٦ . ولكن ما لبثت هذه

ومر...

فبهذه قصة المعلم يعقوب ، المصرى القبطى ، الذى عاش حياة امتدت ستة وخمسين عاماً ، ذاق فيها لذة الغنى والترف ، وتمتع بالجاه والنفوذ ، وحاز من زعماء طائفته المرموقين . ولكن سيرته في الأحوال الثلاثة الأخيرة من حياته وحدها كانت حديث الناس في أثنائها وبعد انقضاءها . لقد كانت تلك الفترة الزمنية على قصرها حافلة بالأحداث التى تركت أثراً عبقياً في حياة البلاد . ومنذ بدايتها اختار يعقوب لنفسه نهجاً واضحاً لم يحد عنه ، ربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومسانحها ومضبرها ، وتمادى في هذا إلى أبعد حد ، حتى أنه وجد من الشطرنجى أن يرحل مع قوات الحملة بعد أن تهاوت أحلام قادتها ومنيت مشروعاتهم في استعمار مصر بالقتل .

ولقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية سيرة يعقوب منذ نشأته ، وتعرضت لمكونات شخصيته ، ثم ركزت على تلك الحقبة العنيفة العريضة رغم قصرها ، ففصلت القول في سلوك يعقوب ومواقفه في إطار المتغيرات التى لحقت وجه الحياة في مصر إبائها ، وفي ظل الظروف التى دماحت أحداث الحملة وتفاعلت معها . واعتمدت

أملى هذا الموقف على يعقوب أن يجارب في صف الفرنسيين ضد المماليك الذين عمل من قبل في خدمتهم ، وأن يتحسس لتكوين القبطي ويتشارك به في عدة عمليات مع الفرنسيين ضد الوجود العثماني في أواخر عهد الحملة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ضد مواطنيه المسلمين .

لقد ساند يعقوب بكل ثقته وإمكاناته الغزاة الفرنسيين وعلاوهم في إحكام قبضتهم على مصر ، واحتسب بقوتهم ، وحسب أن حكمهم بداية لمرحلة جديدة سوف تتغير فيها موازين القوى ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية الفرنسية مكانة متفوقة تتناسب وما قدمه هو وقيلته لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا في سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف امتزج لديه الطموح الذاتي والطامع الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غير المتحصرة . وعندما بات معبر الحملة في مصر واضحا أثر يعقوب الانسحاب من الساحة ، ولم يلبث أن وافته أحله .

أما أحاديث يعقوب على ظهر الفرافطة « بالاس » مع قبطيها الإنجليزى ، فلا تبدو أن تكون من قبيل الأحاديث المعقوبة العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس في نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصيرها الحفظ في أضياف وزوارق الخارجية في لندن وباريس .

ومن التحاوز الشديد ، بل ومن الشطط اللاموضوعي أن تنظر إلى هذه المذكرات أو إلى شق منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها أول مشروع لاستقلال مصر ، وأن تنسب هذا المشروع إلى الجنرال يعقوب ، وأن ينطرف البعض فيرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل في مشروع لاستقلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة في تلك الفترة الحافلة التي سبقت حلا

المحاولة بدورها أن أجهضت بعد ما لا يزيد على ستة أعوام . وقد أدرك يونانيرت ذلك تماما منذ بداية حملته ، فحاول من خلال منشوراته إلى المصريين أن يضرب على وتر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوقيع عائلته والاعتراف بسيادة السلطان العثماني « خليفة المسلمين » ولكن القائل الختال لم ينجح في هذه المحاولة التي لم تخدع أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتي فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومي المصرى ، أى الشعور بالانتماء الوثيق إلى هذا « الوطن » ذى المقومات المعروفة المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل متمزجا امتزاجا قويا بالشعور الدينى ، أى بالانتماء إلى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يفرضه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « الوطنى » بالمعنى السياسى الحديث بعد عهد الحملة بعشرات السنين .

وفي ظل تلك الظروف ، كيف تقوم مسلكت المعلم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد خائن لقومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التي تفتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبنيتة رافض له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الإساءة أن هذا الانشقاق أو الرفض اتخذ من البداية بعدا طائفيا مدموما ، فضلا عما امتزج به من طموحات شخصية .

لقد رفض يعقوب إذ واثته الفرصة أن يستمر في الخضوع لنظام الحكم الإسلامى ، الذى كان في رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وفي ظله تضطهد طائفته القبطية وتعتن حقوقها . وانشق يعقوب على أمته فصانع . كما رأينا الحاكم الفرنسى منذ البداية وذهب في مصانعه إلى أبعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يجد عنه ، بل راح ينتهر كل فرصة لإثباته وقاكيده ، وهو موقف انسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظاهرها التعصبية الحادة .

الحار عن يعقوب ومشروعه أن يغفل الإشارة إلى مذكرتي لاسكاريس المرفوعتين إلى يونانيرت وتاليران والذين وقعهما غير ائذدى ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شفيق غربال الذى أورد نص هاتين المذكرتين وناقشه فى أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية فى شئ . ولو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه عجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعين متناقضين بهذه الصورة يكفى — كما أوضحنا — لإلغاء الضوء على أهم أحداث تلك « المسرحية البحرية » التى أسلفنا عرض مشاهدتها ، ولتقويم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها .

والأمر الذى لا جدال فيه أنه إذا كان المعلم يعقوب قد فرغ ، إبان الحملة الفرنسية فحسب ، إلى صالح مصر عن الدولة العثمانية ، فقد كان هذا النزوع من خلال نظرة ضيقة أملتها عاطفة طائفية لا وطنية فيها ولا بطولية ، وغذاها طموح شخصى يستهدف تحقيق منافع ذاتية . والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم ينفرد وحده فى تلك الأيام بمثل هذا النزوع الذى يغذيه طموح شخصى والذى لا وطنية فيه ولا بطولية ، بل نما هذا المنحى غيره من شخصيات مصر البارزة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية .

تقنوات الفرنسية . ولاشك أن صلة يعقوب هؤلاء القواد وما توافر لديه عددٌ من إمكانيات كانت تسمح له بذلك فى الوقت المناسب . بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجنرال بليار أو غيره عن ظهر السفينة بدلا من الترتبة فيه مع القبطان الإنجليزى . ولعل التناقض الواضح بين فكرة الاتصال بالمسؤولين الإنجليز لتحقيق ما سعى بشروع الاستقلال وبين الاتصال فى الوقت نفسه بالمسؤولين الفرنسيين ، يؤكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس ، الرجل الخيالى الحالم الذى عاش ومات « صاحب مشروعات » .

لقد رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء نبلت أشذكرات وجزم بنسبتها إلى يعقوب ... الذى كان على رأس مجموعة من « المنفيين المصريين » قتل « وفدا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض فى الإشارة ليعقوب وبمشروعه والتحمس له مذهبيا انفراد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إذ وصفه بأنه يمثل مدرسة فى الوطنية والكفاح القومى تعادل — فى تلك الأيام — مدرسة عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلفت سبيل كل منها واختلف مذهبه فى الفكر والفعل . وقال إن يعقوب وفيلقه القبطى نموذج شائع فى عهد يونانيرت ، وقارن بينه وبين من تطوعوا فى صفوف الجيش الفرنسى من الأوربيين إيمانا منهم بمبادئ الثورة الفرنسية . ثم وصفه مشروع استقلال مصر الذى وضعه يعقوب والإخوان الاستقلاليون « بأنه موضوعى ووطنى ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد الأساسية . وحين الدكتور لويس عوض مناقشته الطويلة بأن رفع يعقوب إلى مصاف أبطال مصر وقادتها العظام ، فاعتبره حلقة فى سلسلة الرغضاء الذين شاركوا بمجهودهم فى الكفاح من أجل استقلال البلاد من على دث الكثير إلى جهال عيد الناصر... » ! !^(١٢)

والغريب أن الدكتور لويس عوض تعتمد فى حديثه الطول ودفاعه

الملوك العميل

لقد رأينا كيف أن مراد بك ، الذي فر إلى الصعيد أمام قوات بيش الخليفة بعد أن هجر هو وزميله إبراهيم بك عن مقاومة الغزو الفرنسي على مشافق القاهرة ، ظل يناوئ، ويناضى قوات ديسيه المتوغلة في الوادي الضيق قبل أن يوقع اتفاقية « سلام وتحالف » مع الجنرال كليبر . وقد قضت هذه الاتفاقية بأن يحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم الجمهورية الفرنسية في مقابل التزامات معينة (شكل ٧) .

إن مراد بك - الذي أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الجيزة - قد تعاون مع المحتل الفرنسي بعد هذه الاتفاقية إلى أبعد حدود التعاون . وكانت مصلته بسلطات الحملة في القاهرة صلة التابع الخائن الأمين . ولم يكن أقل من يعقوب ولواء الفرنسيين وعملا على تخليع مصلحته . ومن مظاهر ذلك ما ينير أمر مشاعر الأمس والأسف . فغضب احتيال الجنرال كليبر مثلا بعت مراد بك برسالة تعزية إلى قائد الحملة الجديد الجنرال متو (وهي من الوثائق التي لم يسبق نشرها)^(١٥) . وقد أعرب مراد في هذه الرسالة عن أسفه العميق على حيا أحداث واستنكاره له ، ووصف مرتكبته بأنه « خائن وقليل



حرمانه منها ... » (١٧) .

ويؤكد هذا الموقف من مراد مؤرخو الحملة الثقات من الفرنسيين وغيرهم . فيقول البارون أرنوف (Arnouf) مثلا الذي أרך للجغرافيا كثير ، إن مراد طمع في حكم مصر تحت السيادة الفرنسية خوفا من أن تؤدي عودة السيادة العثمانية إلى القضاء على قوة المماليك ، ولقد كان يسمى نفسه في الصعيد « السلطان الفرنسي » . ويقول ويحيى إن الاتفاقية التي وقعها مراد مع كليبر تدل على بعد نظر سياسي ، لأنه في الوقت الذي يغادر فيه الفرنسيون مصر — وكان ذلك متوقعا — سيكون من السهل عليهم أن يخلفوا فيها مراد بك ملكا على البلاد كما كان يأمل ، وبذلك يمكن الحيلولة دون وقوعها تحت حكم الإنجليز ، وقد ردد مراد نفسه هذا المعنى مرة أخرى في رسالة بعث بها إلى الجنرال دونزول (Donzelot) — أحد كبار قواد الحملة — بعد عقد اتفاقية شهرين (١٨) .

وفي تلك الأيام المضطربة التي حفلت بكثير من الأحداث والتي عاين فيها المصريون من مختلف ألوان الشدائد والمحن ، والتي بدأت بعقد اتفاقية العريش وانتهت بانتصار كليبر في موقعة عين شمس على القوات العثمانية والإنجليزية المشتركة ، كان مراد بك كما كان المعلم يعقوب من أكبر الدعامات التي استند إليها ظهر الحملة الفرنسية في مواجهة للحرج العسكري من الخارج وللثورات الشعبية من الداخل . لقد كتب « جالان » (Galland) و « برتية » (Berthier) وهما من رجال الحملة أن مراد بك قدم للفرنسيين في أثناء ثورة القاهرة الثانية (بعد نقض الصلح مع العثمانيين) المؤن والدخائر وسلمهم العثمانيين اللاجئين له ، وأرسل لهم المراكب المحملة بالأحطاب والمواد الغذائية لإحداث الحرائق اللازمة لإخماد الثورة التي كانت قد اشتعلت كذلك في مناطق أخرى غير القاهرة . وكان بفضل هذه المؤن والمهمات والمواد

الثمينة » . ثم ذكر أنه حصل له غاية الفرح والسرور بتولى جنو قيادة الحملة مستولية الحكم . وأما في العلاقة بينه وبين السلطات الفرنسية فذكر أن كانت وأنه « على النية والشرورة عين ما هو عليه حكم الأول » . « ... ثم أتت الأخبار والبرقيات » . ولم يجد مراد بك بعد هذا بأشياء مع أنه يكتب رسالة لفرقة « الأحرار » في أن يذكر الحاكم الجديد بنفسه مع أنه لم يأتها إلى القاهرة مع أحد القواعد (الأحرار إبراهيم كنجدا) « يعتبر فيه من فضيلة في مسائل كالمستحقات الحكومية المكونة في القنطرة » . « ... من الأحرار الأحرار » . « وحضركم تتحولون وتقبلون عذرتي في حية ترحله لأن حاصل لنا لعب من قبل العليش والأمر إلى الله تعالى مؤني حشركم » . « وقد غرر مراد بك رسالته هذه فبعث بتصوره فيها الأحرار منها إلى منابر جنالات الخسلة » .

والحق في مراد جنات أخرى وخرب مزيدا من الأمثلة لتوضيح ما قد تعرف القصة بين مراد والفرنسيين من سبائك على فهم أقرب . فلو كانت يعقوب وحكم أمانيك على ما حدث من اعتذار وإقبال بينه وبينهم لكانت الخسلة من بعض من تقديمه مصر من أبناء البلاد وغيرهم . فحينئذ لم يكن من المتعذر أن يتفق كثير من مراد كان في الواقع تحليفا لفكرة تولدته بولنبرث في بداية عهد الخسلة . وقد قوام محاولة تحقيقها وروس (Rosen) فصل الخسلة في الأمكنة وفيه (١٩) ، فاما كما كان يمشي في الشوارع في الأرواح فحينئذ لم يكن خطوه ذلك القائد المخلص . وبلا شك كذلك ، وقد نطقه بالغة الأهمية ، أنه كان من أهم من تلك الاتفاقية الموقعة مع مراد بك تسليم مصر إليه عند خروج الفرنسيين منها . وقد أعرب مراد عن أمنا في ذلك مصر في رسالة منه إلى الجنرال كليبر قبل عقد الاتفاقية ، فقال إنه « يرغب في أن يضم إلى مصر من يوتها خلف معكم » . ولقد غلبت الاستمارة في جزء من البلاد ، حتى أنه جعل الفرنسيين من مصر امتصاص مع ما يمدونه به من أحداث التي يمدون على هذه البلاد التي هم مصاحبها ولا يستطيعون قهر الفرنسيين

للتعاون معهم أو محاولتهم هم لاحتواء هذا « البعض » ومد جسور الصداقة إليهم .. نظروا إلى كل ذلك نظرة واقعية ميكانيكية لما غاية محددة واحدة ، هي مصلحة الجمهورية الفرنسية ، مهما اختلفت الوسائل وتنوعت السبل لتحقيق هذه الغاية . وكانت هذه النظرة في الوقت ذاته واعية متبصرة . إهم رموا شياكلهم على مراد وأفلحوا في اصطليادهم ، ورحبوا بتعاونهم وتفانيهم في خدمة مصالحهم ، ولم يجلدوا في تطلعه إلى سلب مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها في ظل حمايتهم أمرا غير عادي أو لا يدخل في دائرة الممكن . لقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هي في حقيقتها اسمية روحية ، وأن الحكم الفعلي للمماليك الذين قال عنهم بونابرت قائد الحملة في منشوره الأول إلى المصريين إنه حاصر للقضاء عليهم . وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطلع رجل كمراد بك إلى حكم مصر منفردا ، فقد كان عند قدوم الحملة يتقاسم وزميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلاد ، أي زعامة طائفة المماليك التي كانت تحتل رأس السلطة التنفيذية في البلاد . وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم المماليك مع ما يفترون به من مظالم ومفاسد ، وليس من العسير أن يصلوا ما انقطع بعد اضطرار الفرنسيين إلى الجلاء بقوانين عن البلاد . ومن هنا أيدوا في اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه بحمايتهم سلطانا أو ملكا على مصر بعد جلائهم ، واعتبروه منذئذ مواطنًا فرنسيًا .

وبذكر لنا الجبر في اتهام الفرنسيين غير العادي بخير وفاة مراد المفاجئة بالتعاون قبل توقيع بليار لاتفاقية الجلاء عن القاهرة بنحو شهرين . فقد أرسلوا « جوابات إلى الأمراء المردية يعزونه في أسوأهم (أي زعيمهم) ، بل وتدخلوا كذلك في تعيين من يخلفه في زعامة المماليك ، فبعثوا « تقريرا إلى عثمان بيك الجوخدار .. بأن يكون أميرا ورئيسا على خيخداشيته (أي زملائه) وعوضا عن مراد بك »^(٥٢) ونحن نعلم أن زعامة مماليك مراد الموالين لفرنسا آلت فيها بعد إلى عثمان البرديسي ،

التي زود بها مراد الفرنسيين أن استطاعوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حتى يولاق وغيره^(٥٣) . ويقول الجبر في هذا الصدد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا (العناني) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا فتسلم الجميع منه وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية عيسى (أي القاهرة)^(٥٤) » . هذا في الوقت الذي كان يعقبه — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا يقاتله لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعنانيين ، ويساعدهم كذلك في تحصيل ما فرضوه على المصريين من مغارم .

وبينما منح قادة الحملة ليعقوب رتبة في الجيش الفرنسي ، فإنهم كانوا يهينون مراد مواطنًا فرنسيًا . وقد حدث في أول عهد مو ، قبل بدء العمليات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة ، أن تدخل مراد بك محاولا التوسط بين العنانيين وقادة الحملة لإجراء مفاوضات جديدة ، وبعث بانيه عثمان البرديسي إلى القاهرة ومعه رسالة بهذا المعنى . ولكن منو رفض هذه المفاوضات وأدان بشدة اتصال مراد بالمسكر العناني ، وقال إن مراد بك هو أحد مواطني الجمهورية (un des membres de la Republique) ويجب عليه أن يهتم بشئونه وألا يتجاوز حدوده^(٥٥) .

وكما عكس الجبر في شعور المصريين تجاه شطط يعقوب وتطرف في التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتعاض والسيخط ، فكذلك فعل في مناسبة وفاة مراد (خلال عهد مو) فأفاض في ذكر مظالمه ، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه للفرنسيين من خدمات ، ثم قال « إنه كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد منه ومن محاليكه واتباعه من الحور والهنود »^(٥٦) .

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد

الجانب العسكري ، فانصرف إلى حد كبير عن النشاط المالي وما جرت عليه جباية المغارم والفرد هو وأتباعه من اختكاكات ومصادمات مع المواطنين . وتكسب عريضة تظلم من ملطى وأطون إلى القائد العام (لم يسبق نشرها) أثر ما اتخذته من إجراءات، إنها يشكون ما وقع بهما قاتلين .. وقد زاد علينا الحال حتى ظهرنا من جملت (كذا) العصاة على أوامرهم . وقد قاصصمونا لذلك فانقضى الحال أن نستغيث بكرسيكم تعيينوا بأمرهم أناسا من أهل الفطنة خالين الغرض من ترونيهم أنتم يقعدوا في مايننا (كذا) ويتصرفوا في حال حسابنا .. ثم يستشهدان بزميلهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يستطع الشفاعة هما أو الوساطة من أجلهما ؛ ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادمتكم الخاص حضرة الجنرال (كذا) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع بخار كيف ينصرف في مثل هذه الدعوة ... (شكل ٩) .

٢ - وعندما كون منو ديوانا جديدا في أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثل الأقباط في هذا الديوان كما كان عليه الوضع منذ أنشأ بونايرت النواوين . وقال في المادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلابد من إقامة ديوان بمصر مؤلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأوفر امتداحا بالفضل والمعرفة والمزهرين عن غيبة المال ... » . وقال الجبرق عن هذا الديوان إنه أنشئ « على نسق الأول من تسعة أنفار متعصبين لاغير وليس فيهم قطبي ولا وجافلي ولا شامي ولاغير ذلك .. » . وكان الجبرق نفسه أحد الأعضاء التسعة في هذا الديوان « (١) » .

ومؤدى هذا كله أنه كان من المستبعد تماما أن يفكر الفرنسيون وهم يخططون لاستئصال علاقاتهم بمصر في الاعتماد على زعيم من زعماء الأقلية

وأن الإنجليز كذلك استأبلوا لتأييدهم فريقا آخر من المالكيو برعامة محمد الألفي ، هذا بينما كان محمد على يصارع مختلف القوى متقسما طريقة لثلاث أفراد يحكم مصر من خلال الشرعية العثمانية .

أما علاقة الفرنسيين بالأقباط وزعمائهم فكانت أمرا مختلفا تماما . لقد لجأت اليهم سلطات الحملة لمساعدتها في تدير الشئون المالية للبلاد تحكم ما يملكونه من حرية طويلة في هذا الصدد ، وما توافر لديهم من بيانات ومعلومات تتصل بالدخل العام ومساحة الأراضي الزراعية وتفضيلات ما تقرر عليها من ضرائب وما إلى ذلك . وزاد اعتمادهم على العنصر القبطي في جباية الأموال وحسابها بعد أن تبن تصغير موطقى الإدارة الفرنسية وبمهاجم . ومع هذا فإن أولئك الحياة والصبايرف لم يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم . ويجمع مؤرخو الحملة ، نقلا عن وثائقها ، على أن المخلصين نهوا أموال البلاد ، واشتدوا في عسفهم وجبرهم . وغلوا في استباحتهم أموال الناس وعيبتهم بكرامة دافعي الضرائب من الفلاحين وغيرهم . وغفل كتابات هؤلاء المؤرخين بكثير من الأمثلة الصارخة على ذلك . ولقد بذلت حكومة الحملة وبخاصة في عهد منو جهودا كبيرة لمحاولة تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الحياة ، بإعادة التنظيم الإداري ومراجعة تصرفات الموظفين والدقة في فحص الحسابات ... الخ .

وقد اتخذ عبد الله منو في هذا الصدد موقفين حاسمين قلبا موازين العلاقات بين سلطات الحملة والأقباط :

١ - تعهدوا ببلغه إستيف (Estève) مدير الشئون المالية للحملة باكتشافه لاختلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقبض على تطون أن طاقية وملطى وأرمهما برد الخالغ التي اختلسها الحياة الذين يمسرون تحت إشرافهما . أما يعقوب فأقلت من هذا المصير إذ تركزت جهوده في التعاون مع الفرنسيين بعد كليبر في

ولتشق طريقها بمسلميها وأقباطها نحو التقدم والتماء ، تصارع كدأبها كل ما رزئت به من معن ، وتقاوم في بسالة ما نكبت به من احتلال آخر جثم على صدرها عشرات السنين ، ولتغترب بشعبها العظيم وأبطالها الخالدين أروع الأمثلة في الوطنية والكفاح ، ولتغير العالم بنورة ١٩١٩ التي اعتنق فيها الهلال والصليب في وحدة لم يسبق لها أن يلاحق بها نظير ، ولتفخر بأبنائها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وفداء .

التيهية ليتولى السلطة في صالحهم أو تحت حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان وراء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ في خدمة مصالحهم .

لقد أذلج الفرنسيون — كما رأينا — في اصطناع بعض المباليك ، ولكن التطورات التاريخية قضت على قوة المباليك المصرية بمختلف أجزائها وانجهاياتها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطنعوا — أو يصنعوا — علماء الأزهر بوصفهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله . وتقربوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغموهم أحيانا على أن يوجهوا منشورات إلى المصريين أو يبعثوا برسائل إلى قادة الحملة ، تجعلهم يبدون في صورة المؤيدين للحكم الفرنسي والموالين لمبادئ الثورة الفرنسية العظيمة ! ولكن هذه المحاولات كان مآلها للتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تبرز من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من توقير الناس لهم وإيمانهم بقيادتهم . أما اصطناع يعقوب أو من إليه من زعماء الأقلية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة في أثناء حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه لينفذ لهم مخططا أجلا أو ليعينهم على تحقيق غاياتهم . إنما هو أمر لم يكن ليخطر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم : أشبه بالمرأنة على الحصان الخاسر .

* * *

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم تزد مساحتها الزمنية على ثلاثة أعوام ، ولكنها حفلت بالكثير من الأحداث والتغيرات . وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسي ، وأفاقت مصر من صدمتها وما خلفته من غير ودروس لتستأنف مسيرتها عبر حقب التاريخ ، ولتصبح بعد قليل أمة ناهضة موحدة تبنى دولة حديثة ، وتنبطور على مر السنين مشاعرها الوطنية الخالصة ، وتتأكد قوميتها الذاتية وانتمائها الطبيعية ،

- (٢٠-) شليق غريال مرجع سابق ص ٢٢ .
 (٢١) الجيوق، ج٣ ص ١٤٢ .
 (٢٢) الجيوق، ج٣ ص ١٨٨ .
 (٢٣) الجيوق ، ج ٣ ، ص ٢٠٥
 (٢٤) Gaston Homoy, op. cit. p.115.
 (٢٥) جاك تاير ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، ص ١٤٠ - ١٤٦ . ويتضمن هذه الترجمة عطلوط مودغ ، بدار الكتب المصرية ، بتوفيق الأثير في علم التاريخ والسياسة والتدبير .

(٢٦) Mémoires du Comte Beliard, t. III, p. 212.

(٢٧) الجيوق ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٣٢) Rousseau, M.F., Kéker et Menou en Egypte, p. 232.

(٣٣) Kéker شليق غريال ، مرجع سابق ، ص ٣١

(٣٤) انظر : George Douai, l'Egypte Endependante, pp. 1-3.

(٣٥) G. Homoy, op. cit. p. 141. وانظر كذلك : شليق غريال ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٣٦) انظر : Mémoires de France, 15 Juin, 1924.

(٣٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣٨) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٣٩) شليق غريال ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٤٠) توجد بعض عرائض الاستجداء من المهجرين المصريين في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية . ويبدو ان المعاشات التي أجريتها الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين . استمرت تصديق لوثقتهم . فعمل سبيل المثال ظل : جبريل إبراهيم ، وهو حميد أميت مقننهم . يصرف معاشه حتى وفاته في عام ١٨٧٨ (انظر : G. Homoy, op.cit., p. 87 .)

(٤١) يبدو ان هذا الشاب كان الوحيد من شباب الأقطاب الذين اصطفاهم الفرنسيون ليشتملوا الفرنسية وبعملوا في جهاز الحكم الجديد ، ولم ينس المرجع المعاصرة للحضلة إلا إلى حبه . فذكرت أنه اشغل بالترجمة لبعض رجال الجيش . عاش (عيسى في فرنسا نحو عشرين عاما عمل فيها مترجما بوزارة الحربية ، حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية للحضلة إلى الفرنسية ، وكذلك شئون العلماء الذين حصلوا كتاب ، وصف مصر ، في تحقيق الأسماء العربية بألفاظه ، ثم عمل مدرسا للعربية العامية غامرة اللغات الشرقية بلويز . وكان قد أعد قاموسا عربيا فرنسيا ، غير انجاسته ونشره بعد وفاته للششرق ، كوسمان دي برسيان : Caumont de Perceval ، الذي حلقه في

هوامش

- (١) عبد الرحمن المبرق ، عجائب . الآثار في القرايم والأخبار ، ج ٣ ص ١٦
 (٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٤٧ .
 (٣) رمزي ناديس ، مشاهير الأقطاب ، ج ٣ ص ٦٤ - ٦٥ . انظر كذلك : يعقوب نخلة وقيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ .
 (٤) Georges Ragail, Le Général Abdallah Menou et la Dernière Phase de l'Expédition d'Egypte, pp. 113-114
 (٥) نقلا عن : Ra Jaconaire, C.De l'Expédition d'Egypte, III, p. 510
 (٦) الجيوق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .
 (٧) زوفو حبيب ، يعقوب حنا ، صور من تاريخ القبط ، ص ٣٠٨ .
 (٨) الجيوق ، ج ٣ ، ص ١١٣ .
 (٩) المرجع السابق ص ١١٤ .
 (١٠) المرجع السابق ص ١١٨ - ١١٩ .
 (١١) انظر شليق غريال ، الجيوق يعقوب والعارس لاسكاريس ، ص ٢٠ .
 (١٢) انظر شليق غريال ، الجيوق يعقوب والعارس لاسكاريس ، ص ٢٠ .
 (١٣) شليق غريال ، مرجع سابق ص ٦٠ .
 (١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج ١ ، ص ١٨١ .
 (١٥) Ragail, op. cit., p.76
 (١٦) الجيوق ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .
 (١٧) انظر : محمد إواد شكرى ، الحلة الفرنسية وظهور محمد علي ، ص ٣١٧ ، ٣٥٢ .
 (١٨) شليق غريال ، مرجع سابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .
 (١٩) الجيوق ، ج ٣ ، ص ١٧٦ .

ملحق

تقديم . وقد طبع هذا القاموس بعد ذلك عدة مرات ، بعضها في مصر بتحقيق عدد من عربى
مؤسسة الأنس في عهد اسماعيل . انظر : أحمد حسين الصاوى ، فهر الصحافة في مصر ،
مر ١٦٥ - ٢٦٦ ؛ وكذلك : شفيق غزال ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٤٢) يرجع اسمه الى القاموس بيدمونت (Piedmont) الإيطالى ، الذى يقع على سفوح جبال الألب
مما يفسر اختياره ليعطى مع فرنسا وسويسرا .

(٤٣) شفيق غزال ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٤٤) لويس غوش ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٤٥) مؤرسة ٩٥ مصر ١٩١٥ (يولاي ٨ يوليو ١٩٠٠) .

(٤٦) محمد مؤاد شكرى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(٤٨) Rigault, op. cit., p. 75 .

(٤٩) محمد مؤاد شكرى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥٠) الجيرى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

Rigault, op. cit., p. 288 (٥١) .

(٥٢) الجيرى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

(٥٣) الجيرى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

(٥٤) الجيرى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

فتلاّت شجاعته وعقله ثم فطنته
 وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنسي^(١)
 وقد فاز بها على الممالك إجمالا
 ظافر بأرقابهم^(٢) نصرا بالعز والقهر
 وأخضع تشاغ جماعة البربر
 مروضا لأعلاق أهل إقليمنا المصير
 بل وأهل تيبليس^(٣) المشورة ومن
 كان قاطنا بالبر ثم والقفص
 فاعجب بمن كان محبوبا ثم مرغوبا
 حتى ومن كادهم بالحرب والقهر
 داسه ففتح بلادنا بناحية قبل
 يضرب ويشقى ولا يدنو إلى الغدير
 صنديد مجاهد وعصم محارب ولكنه
 طبيب مداوى الجراح بالريث والحمير
 نأها على ناصري داسه ووا أسفى
 على اصطحابى به لو قلبر القدير
 فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجو^(٤)
 كما رافقته قبلا بصعيدنا لقصري
 فكنت أرجو وجودى لمعاونة عيى
 كما صاحبه قبلا بالعز والنصر
 فموتى عنه فداء كان يغنيه
 عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر
 أموت عن من حياته دوامها نفع
 ودوامها لخير عام والقمطر والظفر
 ولكنه وإن مات فهو حتى وما
 زال ذكره من دهر إلى دهر

ملحق رقم (١)

نص قصيدة يعقوب في رثاء الجنرال ديسية^(١)

إنا لله وإنا إليه راجعون

الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنعام اللغات
 الدرهمس^(٢) ، وكاشف الغطاء اللامس^(٣) ، عن الآثار الخوارس .
 تحمده حمدا وشكرا لا نقا بإله مبدع وحائق ، بارئ المبررات
 والخلائق ، مكزّر الأرض والسماوات ، بصور الأحياء والأموات ، يميز
 النفائس من الخسائس . فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره وهو المالك
 والسامس أمين .

وبعد ، فهذا دعاء جليل شديد ، به تنحب وفات عزيزه ، الجنرال
 داسه صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد .
 فيقول

أدرفنا على ذكر الحبيب دموعا
 مكرنا بها ليوم البعث والحشم
 حبيب وقد ذاع صيته أبدا
 بطل وقد عرف في سائر القبط

وإذا نُحِلَّت يصلح عام منتقلة
من يد ليد حاكم متعجرف ومفتري
فمنك نطلب العون ياداه بأجمعنا
واسمك بباريس حمانا بأشائع الذكر
فنا اغتنى لديواننا بناحية قبل
لننجوا بحياتنا من الموت والحسر
فتنقذ بنيك من كل نائفة
فإنهم بأعدائهم في أعظم الخطر
والآن غصبتهم تقام ضد أمنا
ولجنا الفرنسيين فصددهم بسكن القبر
وعيننا للفرنسيين فلا بد عنها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر
ثم انتهى مقال إليك ياربي
تجزي لداسه أعماله بالخير والأجر

هوامش

- (١) انظر شكل (٣) . وقد جاء في الترجمة الفرنسية المصاحبة للنسخ العريق أن القصيدة موجهة إلى وزير الحرية الفرنسية .
- (٢) جمع « فانس » أي انتهى المستطير . وقد يكون معنى العبارة : « الثلاث غير المعروفة » .
- (٣) تشديد الهمزة (أ) الشر
- (٤) سبعة عداوة لجميع « ربة » . والصحيح « رقاب » أو « رقب » .
- (٥) سبعة سنة التقية (الأضرار) .
- (٦) قصيدة معركة غارغو بإيطاليا التي قتل فيها ١٨٠٠ .
- (٧) قصيدة : مستندوا بالتسامح
- (٨) عبارة غير مفهومة والشعر كده غير واضح للنسب .
- (٩) ترى (١١) تطلب (١٢) بقصد : الأسر

ولم يزل يفكرى غلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى
وظل نفسه الجميلة محف أنوارا
متندرا بالتسامح^(٩) فضاء الجو كالقمر
فيصطحب مع الأقدمين مشتركا
متربنا بهاء أشعة الحب لليشير
وبشاهد عيانا برج حظ يونابارته
وما غصه الله من العظمت والقدر
وباتحاد مربع^(٩) وبهذا القدر مستغرب
يرجع البربر أعداء الله واليشير
فيحصل الخير وينجح أهل مشرقنا
وبعود النظام ونرا^(١٠) النفع قد صدر
فيا من قطن ببلدة الأحياء والقبلة
ونفسك هناك تمضي^(١١) داخل الحذر
جد على بلحظ العين متربنا
وانظر إلى بأسى برفق البصر
فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته
فعدت حياتنا لا تخلو من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما
وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر^(١٢)
فكم كنت تعجب أنت من مفاخرهم
وتبئيس القديمة يملن ذكرها الخير
فمنك نرجوا الشفاعة بامعصد الأول
فلا تدع مصرنا لسابق الشر
ومن بعد حكم الفرنسيين أعواما
فلا تسيبها لحاكم يسوس بالقسم

إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين
لأننى ما قدمت إليكم الا لكيما أخلص حفيكم من يد الظالمين وإننى أكثر
من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمد والقرآن
اتعظيم^(٢٧) .

وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوين عند الله وإن الشئ الذى
يترفعهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين
المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين
وتستوجب أنهم يملكوا وحدهم كلما يحلو به حيات الدنيا^(٢٨) .

حيثما يوجد أرض مخصصة فهى مخصصة للمماليك والجوارى الأجل
والخلف الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصا .

إن كانت الأرض المصرية التزام للمماليك فليؤروا الحجت^(٢٩) التى
كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر بعونه تعالى
من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالى مصر عن الدخول فى
المناسبات السامية وعن اكتساب المراتب العالية والعقلا والفضلا والعنما
بينهم سيديرو الأمور^(٣٠) . وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

سابقا فى الأراضي المصرية كانت المدن المعظمة والخليجات الواسعة
والمنجر المتكاثرة وما أزال ذلك كله إلا الظلم وظلم المماليك .

أيها القضاة والمشايخ والأئمة (الأئمة) وبأيها الشورابجية^(٣١) وأعيان
البلد قولوا لأمتكم إن الفرائسوية هم أيضا مسلمين خالصين^(٣٢) وإثباتنا
تلك قد نزلوا فى رومية الكبرا وخربوا فيها كرمى اليابا الذى كان يحث
دائما انفسار على عاربة الإسلام لم قصدوا جزيرة مالطة وطرودوا منها
الكرماليرية^(٣٣) الذين كانوا يوعصوا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة
المسلمين ومع ذلك الفرائسوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحيين
الأحسنيين لمخترة السلطان العائلى وأنقاد أعداياه^(٣٤) أدام الله ملكه

ملحق رقم (٢)

النص الكامل لمشور يونابرت الأول إلى المصريين^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفرائسواوى^(٢) المبني على أساس الحرية
والنسوية^(٣) السر عسكر^(٤) الكبير يونابرت أمير الجيوش الفرائسواوية
يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السائق الذين يتسلطوا
فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرائسواوية
ويظلموا تجارتها بأنواع البلص^(٥) والتعدي فحضر الآن ساعة
عقوبتهم .

وحسرا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك الجلبوبين من
جبال الأبارا والكركجستان^(٦) يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى
كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ قد حتم على
اقتضا دولتهم .

بأيها المصريين قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف

• المادة الخامسة •

الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازموا وظائفيهم وعلى كل واحد من أهالي البلد أنه يبقى في مسكنه مطمئن وكذلك تكون الصلات قائمة في الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم لشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولت المماليك قائلين بصوت على أدام الله إجلال السلطان العتال أدام الله إجلال العسكر الفرنسي أدام الله إجلال المماليك وأصلح حال الأمة المصرية •

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنسي يعني في أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية^(١٧)

وبالمقلوب^(١٨) المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير محتلين لأمره فما طاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم •

طوى ثم الطوى لأهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوى أيضا للذين يتقدموا في مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين الثارين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب •

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا فلا يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر •

• المادة الأولى •

جميع القرى الواقعة في دائرة قرية بركة - عادات عن الموضع التي يتر بها العسكر الفرنسي فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر بمقتضى وكلا من عندها لكيما يعرفوا المشار اليه أنهم طاعوا وأهم نصوبا السنجاق الفرنسي^(١٩) الذي هو أبيض وكحل وأحمر •

• المادة الثانية •

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرنسي تتحرق بالنار •

• المادة الثالثة •

كل قرية التي تطيع العسكر الفرنسي الواجب عليها نصب السنجاق الفرنسي وأيضا نصب سنجاق السلطان العتال بحنا دام بقاءه •

• المادة الرابعة •

المشايخ في كل بلد ليختصوا حالا جميع الأزاق^(٢٠) والبيوت والأملات بنوع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع أدنا شيء^(٢١) منها •

هوامش

- (١) انظر شكل (٥) .
- (٢) يقصد : الجمهورية الفرنسية
- (٣) أي : على مبدئي الحرية والمساواة .
- (٤) قد تكتب أيضا : صاري عسكر ، أو : صاري عسكر ، ومعناها القائد العام .
- (٥) بنصته يقال : بأفقه وبأفقه من المال ، أي : لم يترك له شيئا .
- (٦) الأشار أو أو الأيالة : من شرب القوقاز ، والكركستان هي جورجيا . وفي الأصل فرنسي «achetés dans le Gouge et le caudée»
- (٧) في الأصل الفرنسي «وطني أحرم الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك» : Je respecte, plus que les mamelouks, Dieu, son Prophète et Al Coran.
- (٨) أي : كل ما تحفر به الحياة الدنيا .
- (٩) أي : علينا ورعا الحقبة
- (١٠) العبارة في الأصل الفرنسي أكثر تحديدا فهي تقول «Gouvernement» أي : سيولون الحكم •
- (١١) تعني هنا كبار الأعيان . وكانت هذه الكلمة التركية تطلق كذلك في الاصطلاح المتخصص

على انضباط حائل رتبة « جورجي » ، وهي تعادل رتبة « الشقيب » الحالية .

(١٢) في الأصل الفرنسي « أمراء المسلمين الصادقين » : amis des vrais musulmans .

(١٣) المقصود بمرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، وهم طائفة دينية تكوَّنت في مدينة القدس في أعقاب الحرب الصليبية الأولى (أوائل القرن الثاني عشر) وبعد عدة أحداث استقرروا في جزيرة مالطة . وقد اتخذت حكومة الثورة الفرنسية عدة إجراءات ضد أتباع هذه الطائفة وأملأوها . ثم تدرت حكومة الإدارة (نابليون) احتلال جزيرة مالطة نفسها بواسطة الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت ، وهي في الطريق إلى مصر . انظر من ٥٥

(١٤) أي : أعداء أعدائك

(١٥) أي : وعلى العكس من ذلك

(١٦) أي : العلم الفرنسي

(١٧) جمع « رزقة » ومعناها : أرض أو غيرها مما يُقَل ، يضرب ربحها على أوجه معينة .

(١٨) أي : أمدق شيء

(١٩) يوافق هذا الترخيع تولى بولس عام ١٧٩٨ م ، و ١٧ حرَّم عام ١٢١٣ هـ .

ملحق رقم (٣)

نص رسالة مراد بك إلى الجزائر منو^(١)

صور^(٢).....

جواب من حضرة أمير اللواء مراد بك أمير الحاج سابقاً خطاباً إلى
حضرة ساري عسكر عبد الله منو أمير الجيوش الفرنسية مضمونه
إن سألتم عنتاً فإننا طيبين بخير ولم نسأل إلا عنكم وغير ذلك إن
حضر لنا جوابكم وعرفونا بما حصل إلى حضرة عبنا العزيز صاري
عسكر كثير وهذا أمر الله تعالى لم أحداً بيده حيلة وأمر الله تعالى لا بد
عن نفاذه والذي سأل على قتله مثل واحد كبير زى ده لم هو
شأن^(٣) وبما خابن وقليل المردة ولكن من قديم الزمان الاخوانة هم
وكل احدا جزائره على الله تعالى وذكرتمونا في جوابكم أن الجمهور^(٤)
سلموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا غايت الفرح والسرور لأن
سابق بلغنا عنكم الاخبار الطيبة وشكرانية عن حضرتكم والناس جميعا
يُدحركم بكل خير واحدا الآخرين حصل لنا فرح بذلك وزاد حبنا
لفضلكم وإن شاء^(٥) الله تعالى يكون راحتنا على الله تعالى وعلى حضرتكم
السعيدة وإننا على اخبة والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإن شاء^(٦)

إمكان (إن كان) يظهر كلامنا هذا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه
أيضا خادمتكم الخاص حاضرة الجنرال يعقوب . ومع ذلك لأجل طبعه
الوديع مختار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوة والله تعالى يحفظكم .

من عند تواضعكم المباشرين

ملطى وأنطون^(٢)

ملحق رقم (٤)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال منو^(١)

حضرة صاري عسكر العام

إن جنابكم من قبل ما فيكم من العدل والحلم والفضة أرسلتم تسألونا
بأن نوضح لكم ما نحن به من القهر فنحن قبل الآن لم نقصد كشف
جراحنا التي كانت في كل يوم تنسج شيئا فشيئا أولا تسليما للتقارير
وعشما يكون كل واحد منا يرجع لذاته ويحاسب نفسه تانيا خوفا من
أن يقال عنا إننا نحب السجس^(٢) ونواخذ (نؤاخذ) بذلك من الحكام
ناكثا ليل (لئلا) يتضح كأننا أخصام لأخواننا وقاصدين الشكوى عليهم
ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطبيب الرعايا وقد زاد علينا الحال
حتى ظهرنا من جملة العشاء على أوامركم وقد قاصصتمونا لذلك
فاقتضى الحال أن نستغيث بكمسيكم نعتونا بأمركم أناسا من أهل القفنة
خاليين الغرض ممن نروثهم أنهم يقعدوا في ما بيننا ويتصرفوا في حال
حسابنا وفي النهاية بعد أن يردوا الجواب لجنايبكم لكم التصر في
ما تأمرون به ومع ذلك فنرجوكم بأن لا تظنوا بكوننا قاصدين
بعرضنا الشكوى على أحد ام قصاصه بل قصاصنا نحن بوجه خاص

هوامش

(١) انظر شكل (٩) . والعريضة مرفوعة إلى الجنرال منو — كما جاء في الترجمة الفرنسية ، وإن
كانت غير مؤرخة .

(٢) السجس : الكدر والتعثر ، والمقصود الأعمال الروتية .

(٣) كان من من أكثر زعماء الأقباط لهم الحسنة الفرنسية . وقد تولى في عهد بولاميرت رئاسة
« محكمة القضاء » بالقاهرة ، وهي تجمع بين اختصاصات المحكمة المدنية التجارية وإدارة الشهر
العقاري وتشكون من شئ عشر عضوا . وكذلك كان أنطون من كبار الأقباط وأكثرهم غنى وكان
يعرف باسم « أبو طاعة » .

فأصبح المصريون الآن يحقرونهم كما كانوا يحقرون الترك ، وأنه ما يزال يأمل في خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية ، ويرى أن الرجاء إلى فرنسا قد يمكنه من ذلك . وقال إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم أقوى دول أوروبا ، وأنه لم يكن يعرف إلا قليلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا ، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه تغير موافقة بريطانيا فإن رغبته في أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق . وقد أبلغني صديقه لاسكاريس الذى كان يترجم أقواله إلى أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة اللورد الأوربية في أمر استقلالها . وفي أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتافى هذا وهى مكونة من أجزاء تتضمن خلاصة لما دار بيننا من أحاديث ، إذ كان الجنرال قلق وخائف قد أعرب عن رغبته في أن أبلغ فحوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كى ينعمه بدوره إلى الحكومة البريطانية . وقد أكد لى السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضائه مسافرون معنا على ظهر السفينة ولم أستطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضو في هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى مسكرتهم مترجم له . غير أن اعتقد أنه رجل مغرب في الجبال ، وأظن أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة ملاطية الذين تركوا الجزيرة مع جيش بونابرت . وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا أستعمل أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه في أى وقت من الأوقات بما يمكن أن يعود عليهم بالضرر . ولما كان هذا الوفد ، الذى لا يمكننى أن أجده مدى صلاحاته ، قد اتجه في الغالب إلى باريس للإقامة بها ، فقد رأيت من الضروري إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد مضى بعض الوقت قبل أن تتاح لي فرصة إبلاغه أولا إلى قائد العام اللورد كيث . وأرجو أن تفضلوا بقراءة مسلكي هذا .

ولى عظيم الشرف ياسيدى اللورد أن

ملحق رقم (٦)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقلا
بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينة

- ١ -

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد^(١) . وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين النعماء . ولكن من الضروري في الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة . ولما كان من عدم التبصر في الوقت الحاضر عرض حطنا بشكل أكثر تفصيلا ، فإن هذه المذكرات الموجهة للكتابة على عمل يمكن أن تكون كافية لتذكرك بأهم نقاط أحاديثنا . وعندما يمين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد ، فإن المصريين ، لو وثقهم في سجاياك الكريمة ، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بتصحيحهم ، حتى يمكن أن يكون لنا سند ، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطانى ، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا ، وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها

نرشك الامبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهم الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلتبسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه ليحققوا مصالحهم السياسية . وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر — كما استحال ذلك من قبل على فرنسا — فيكفي أن تخضع مصر المستقلة لتفوذ بريطانيا صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها . ولاشك أن أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بمواصلاتها الوفيرة التي تنتجها تربتها الخصبة وتتجارها التي تنفرد بها مع قلب أفريقيا .

وهذه المزايا سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التي يهبها — بحكم مركزها في الهند — أن تناسر مع مصر وما حولها .

لقد كان مراد بك يقول — وربما كان على حق — إن كفار العرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر التجارية ويقنع لها بالتالي أن يكون لها من تربيده من نفوذ فيها . ولكن ماذا سيكون من أثر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد الحليفة الطبيعية للباب العالي ، وإذا ما عمل الباب العالي من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية في إحداثها فأغلقت مرافئها في وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليتحدوا — برا — بامير عداوية كثير مع الإنجليز ، فيمكن أن تقضى على تجارتهم في بلاد

نفع لبلادها ، وليس هناك ما يمكن أن يكون أمضى غاية لسعي لورد بيل مثله .

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه « الوفد المصري لدى الحكومات الأوربية » ، باسم المصريين الذين قوطبوه ، يبدو قليل الأهمية في نظر تلك الحكومات ، فإنكم بياسادة القبطان توافقونا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تفعل أبعد أو أكثر من أن تبتدء بقرار سياسي بسيط ظلمات الجهل والحمية التي تنبع على هذه البلاد المائعة الصيت . لقد كانت هذه البلاد مهددا لاستمرارنا ولعلومنا وقوتنا . وبجمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التي نشأ عنها اليونان ومنها وصلت إينا . وإذا كانت مصر بماضيا المزدهر العظيم لا تستطيع أن تنير دول أوروبا شعور العرفان بعشيقها وما لها من فضل ، فهي تستطيع عن الأقل أن تنير فيها شعور العطف عليها ، فإذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الطامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها في مصالحها .

لن يمضي وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على الأسس التالية وفي هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك ، وعندئذ ينبغي ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصري في باريس ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشيء من الرية . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسي ، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة ، لأن مصالحها في نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا . والذي لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة في امتلاك مصر مرة أخرى .

وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد التي رويت لك قصتها . ولاشك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانيا : كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم في خلاله تنظيم جيش وطني قادر على رد الاعتداء . أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فتعتقد أن الدول الأوروبية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم بتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندي يكفيون تماما لصد الترك عند الصحراء وليسحق المماليك داخل مصر ، وتكون هذه القوات في الوقت نفسه نواة الجيش الوطني . ولما كان العنابيون يفعلون أى شيء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تليد ضدهم في القسطنطينية .

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف ، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها بعض من أجل حفظ التوازن بينها . وللوعد المصري صلات هذه الطوائف جميعا دون اختيار لواحدة منها على الأخرى . وهذه الصلات قائمة في الخفاء وتستغل خافية تماما عن الحكومة التركية في مصر . وهذه الحيلة أمر لا بد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس ، ولن يتوانى عن البطش بالأحرار دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم . ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأحرار مع الجيش الفرنسي أن ينجحوا طغيان الترك ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأحرار الذين بقوا في مصر ، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا ، ولا يملكون إلا إحقاق حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين .

النشام وفي البحر الأحمر ؟

- ٦ -

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء في الحكم في أثناء احتلالهم لمصر . ولست في حاجة إلى إعادة الكلام في هذا الموضوع ، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله . وعلى هذا فإن كل شيء ، بما في ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم ، يثبت أن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر . أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه . وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات في مستقبل الأيام .

- ٧ -

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوروبية سمحت باستقلال مصر ، فكيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولا : لا يسمح المجال في هذه المذكرات الخصرة على عجل بالدخول في تفاصيل مشروع الوفد المصري لحكم البلاد . ويكفي الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اضطرت فيها تختلف الآراء الفلسفية ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبري تفرضه القوة القاهرة على قوم مسلمين جهلاء بكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسمع على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخلهم ، وهو أمر ليس باليسير ، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وأي حكومة في العالم أفضل من الاستبداد التركي . فلنكن الحكومة الجديدة إذا عادلة

والفرنسية ، أو شكاً منها في وجود دسيسة ما من دسائس فرنسا .

- ١١ -

لكي تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك بإسدي القبطان أن ترسل ما تريد إلى المستور الكونت انطون كاسيس (فليس) المقيم في تريستا ، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمي تحت اسمه على كل رسالة . أما الرسائل التي قد توجه إلينا من إنجلترا ، فإن وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن نلزم الحيلة القائمة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

ظهر السفينة بلاس في ٢١ سبتمبر ١٨٠١

- ٨ -

إن المصريين كافة ، والوفد المصري لدى الدول الأوروبية بوجه خاص ، سيبدلون كل مافي وسعهم من جهد ليجروا أنفسهم بطريقة ما من التبر الذي يتقل كاهل بلادهم التمس . ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتمريضها بذلك لتجدد العدوان عليها ، فأقل ما يلتزمه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

- ٩ -

بالرغم من أن الوفد المصري لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسي فيه نتم جميع الحكومات بما في ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) ، فقد تعرض ظروف لابد فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات . ولذلك فإننا نرفق بهذا ه شفرة ه يمكن استعمالها في مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك .

- ١٠ -

يرى الوفد المصري حرصاً منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد ، عن فرنسا وعن أي طرف يستطيع عرقلتها . إن خطة الوفد أن يعمل في أوروبا على أن تكون فرنسا هي التي تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتصت بما في مشروع الاستقلال المقترح من مزاجها فتؤيده . وبهذه الطريقة فإن الوفد المصري لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدي بين الأمتين الإنجليزية

هوامش

(١) بقصد الأعيان اللورد كيث ، إذ حسب أن إدموندس سوف يرفع الأمر له بالصدر وتليه المشاور .

لمصر ما ترصاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا .

إن هذا سوف يحدث بإفخامة القنصل الأول إذا تفضلت — من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية — فمددت يد المساعدة للمصريين النعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التي عادوا ينوعون بها من جديد ، وتكرمت فأجست استقبال وكلاتهم في باريس . إننا نأمل أن يكون استقبالنا في العاصمة الفرنسية بمثابة احتياج شرق يحدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى إفاء الله به عليك ثم ضاع منك . ولا بد أنك — ياسيدى القنصل الأول — شديد الإحساس بأنك ما فقدت ، ولكك إذا عملت في معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة . إن هذه هي آماني التي أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعى إلى تحقيقها .

عن الوفد المصرى

وكيله

غمر إغدى

حاشية : أغا الانكشارية^(١) وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول في القاهرة يرجو أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غسرت به من عطف حينذاك .

هوامش

- (١) صفحة التاريخ الجرى — حسب الجداول التوقفية — هو ١٥ جمادى الأولى
(٢) هو المشرع الاتينى المعروف (١٤٠ - ٥٥٨ في م) الذى وضع لبلاده عدة قوانين حررتها من عبود كثرة .
(٣) هو عبد المال أغا الانكشارية الذى سبق ذكر خروجه من مصر مع الجيش الفرنسى (انظر من ٢٤٧)

ب — من قسم الخفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية الفرنسية

ملحق رقم (٧)

من غمر إغدى لنبابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير .

الشجر الصحى بمبارسليا في أول فندبير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦^(١)

في قديم الزمان ، إبان تلك العصور الموعلة في القدم ، عندما كانت فرنسا في حالة الفطرة تكسوها الثلوج والعباب ، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينبل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها . ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يقد مصرى العصر الحاضر أحقاد رواد الحضارة في الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد ، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى ، مكتنبا — وهى الجمهورية الناشئة — من الحافظة على مكانتها الحرة بما سته من نظم سياسية جديدة وكما أن مولون (Solon)^(٢) عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتسه من النظم المصرية ، فإن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع

الإيبوية . وإذا كان الملك قد أخفق في مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم في ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية المطلقة الاستبدادية .

وإن الوفد المصرى الذى بنوب عن الأمة المصرية لجسد وحده كل ما يحتاج في نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يمتد في قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يمثل في رغبتين : الأولى هي القضاء على القوة الغشوم التي عادت تستبد بهم من جديد ، والثانية هي وضع نفوذهم في فرنسا ليقيم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضى ألا تحب أملهم . وبناء على ذلك فحين تقدم إلى مساعدة الوزير باقتراح : لقد تكبدت فرنسا في الشرق خسارة جسيمة ، فلم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرت ؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقاءك في باريس قبل توقيع الاتفاق القمهدى مع بريطانيا ، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى في الشرق ونحبه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن ، ونتيجة لمؤامرات الدول التي تحشى بحق زيادة نفوذ فرنسا . بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية التي ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقيا . وهكذا يتحول تركم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لجذ القنصل الأول ومصلر رفاهة للأقاليم الفرنسية في الجنوب .

ولا يرى الوفد المصرى في الوقت الحال داعيا للإطالة : فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع في عشرين مذكرة مكتوبة . ونحن العرب نقدر في الحديث على التعبير عما نريد ، وإن كنا في الكتابة قد لا نستطيع أن نبلغ الغاية في يسر . وبالإضافة إلى

ملحق رقم (٨)

من عمر افندى لى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانئ الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التي تم جلاؤها عن مصر . والوفد المصرى ، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه في أثناء السفر ، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية بويرى من الضروري أن يلجأ إليك باسعادة الوزير لتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى في الحقيقة لد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط افريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكي يتعلم في فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

مصادر البحث

هذا فتح مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز في الرسائل . إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا ، وأن تسمح لنا إذا تكرمت باستقبالنا في باريس أن نقابلك بزيارنا الشرق . فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زعيم ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة الفصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حسب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق .

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت الفصل الأول ، الذى يدير بنفسه شؤون الحكم حتى في أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته ، أنتم من أن ينقعه في التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقلر أن وفدنا يتفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا في ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرقى بهذا له أهميته ، فيفضل بتسليمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة .

القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ - يعقوب نخلة وفيلة ، تاريخ الأمة القبطية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

ب - المراجع غير العربية

- 1 - Douan George, L'Egypte Independente. Le Caire, 1924.
- 2 - Homsy, Gaston, Le Général Jacob et l'Expédition de Bonaparte en Egypte, Marscille, 1921.
- 3 - La Jonquière , C. De, L'Expédition d' Egypte (1798-1801), Paris, 1899-1907.
- 4 - Rigault, Le général Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition d'Egypte (1799-1801), Paris, 1911.
- 5 - Rousseau, M.F., Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte, Paris, 1900.

أ - المراجع العربية

- ١ - جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ٢ - رؤوف حبيب ، صور من تاريخ القبط ، رسالة مار مينا الرابعة ، مطبوعات جمعية مار مينا العجائبي ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٣ - شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ٤ - عبد الرحمن الجبرق ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ .
- ٥ - لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، جزآن ، كتاب اقلال ، العددان ٢١٥ و ٢١٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٦ - محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ،

ج - الوثائق

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية : تركيا

٢ - وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : تركيا ، مراسلات

٣ - وثائق وزارة الدفاع الفرنسية : جيش الشرق

فهرست

٥	مقدمة
٧	تمهيد
٩	أقطاط مصر
١٣	الفرنسيون والأقباط
١٧	المعلم يعقوب حنا
٢٣	في عهد كليبر
٢٥	يعقوب قائد عسكريا
٣٣	في عهد منو
٣٧	قصيدة غير عصماء
٤٥	نهاية الحملة .. والرحيل
٥٣	قصة منشروع الاستقلال
٥٩	ممر حية بحرية
٧٥	نهاية الأحداث
٧٩	وبعد ...
٨٥	الملوك العميل
٩٩	ملاحق
١٣٥	مصادر البحث